

شعوب العالم



تونس



دارالمعارف

96

تونس

اهداءات ٢٠٠١

محمد هادي

بالمستشفى الملكي المصري

شعوب العالم

٥

تونس

تأليف

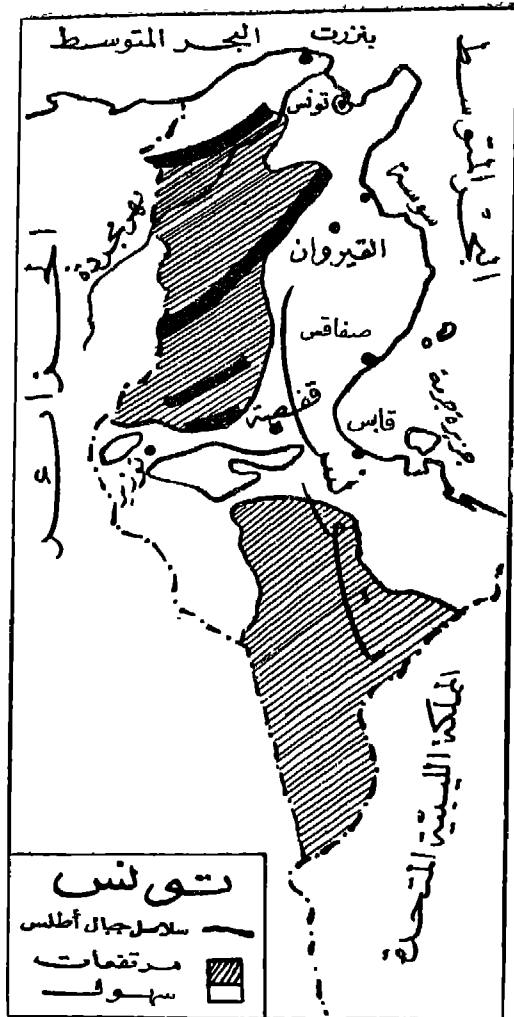
حسن محمد جوهر



دار المعارف بمطرب

١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ه شارع ماسبيرو - القاهرة ج . ع . م .



تقديم

مرت بشعوب الأرض وأمها ، منذ فجر التاريخ ، عصور متعاقبة . بين يقظة وخذود ، ونهضة وركود . وحياة نابضة بالقوة والعزة والكرامة والرفعة والرفاهية ، وتردُّ في حمأة الضعف والضعف والبؤس والشقاء والنذل والمهانة . ولقد ذهب الباحثون في علمي الجغرافية والاجتماع في تحليل ذلك مذاهب شتى ، ذهبت بتفصيلها وشرحها كتب قيمة كثيرة . ولقد رد بعضهم علمها إلى ظواهر كونية ، وردوا بعضهم إلى عوامل جغرافية⁽¹⁾ . وعزاها بعضهم إلى عوامل بشرية . كظهور الزعماء الأكفاء والقادة الموهوبين المخلصين في أمة من الأمم . أو في شعب من الشعوب . في الأوقات المناسبة ، والظروف المؤاتية في عصر من العصور ، وامتغارها إليهم في عصر آخر .

والشعب التونسي ككل الشعوب الإسلامية العربية منها وغير العربية . مرت به في العصر الأخير فترة خضوع واستعباد . تحمل فيها صنوفاً من المهانة والأذى ، وأغمض أجبانه على القلدى ، وخذرت في أناسها أعصابه فلم يعد يحس بأجداد أجداده . ولكن هذه الفترة لم تدم لحسن الحظ طويلاً

(1) اقرأ كتابي العالم الجغرافي منتجتين : (أ) المناخ والمدنية (ب) نبعر التقدم .

El-Bachra - Huntington (a) Climate and Civilisation.

.b The Pulse of Progress.

إذ تلها فترة صحا فيها على صيحات بعض أبنائه الأحرار^(١)؛ فهب هبة قوية

(١) اقرأ كتاب الأستاذ على البلهوان: تونس الثائرة: فتتطف لك شذرات منه : لقد كانت قرية تازركة أول مسرح للبطش الفرنسي بجهة الدخلة . . . وقد عاث الجنود في البيوت فسادا ونسفا ونهبيا لغرض ظاهر للعيان وهو إلحاق الضرر بالأهالي بتهديم بيوتهم ، وتحطيم ما فيها من أثاث ومدخرات وموّن . . . هدم بيت محمد قاسم الزكار نسفا بالديناميت ، ونسفت بالديناميت أيضا بيوت صالح وعلى ومحمد برينيس ، وحطم بجميع ما فيها من أثاث... وأتلف الجنود جميع ما في بيت خلدوجة ناجية ، وهي أرملة تعيش مع بناتها الأربع ، فدخل الجنود عليها ، وسرقوا جهاز البنات . . . ولم يكتف الجنود بتلك الأعمال الوحشية ، بل أرادوا المس بدين تونس وإهانتة ، فدخلوا مسجد القرية ، ودمقوا مصاحف القرآن وبعض كتب الحديث الشريف والفقهاء الإسلامى .

وكان التنكيل بالتونسيين يرمى إلى أذيتهم أذية عميقة والمس بتقاليدهم وروحانياتهم . ولذا أطلقت يد الجنود في تلك الليلة على النساء . . . واعتدت على شرفهن وكرامتهن . وكان التحقيق في هذا دقيقاً صعباً . وقد استعملت الدكتوراة الآتسة غيلب والقابلية السيدة بدرية الورتاني كثيراً من البقاة للحصول على بعض المعلومات . وهذه بعض الفقرات من تقريرها .

(١) ج . ب . بنت سنها ٢١ سنة اغتصبت . . .

(ب) ب بنت س : سنها ٢٥ سنة كانت حاملا في شهرها الثالث ، تتبعها الجنود وضربوها وأجهضوها .

(٥) هـ . بنت س . ب . سنها ٢٥ سنة فرزعت ملابسها واغتصبت بينما كان السلاح مصوباً نحو عنقها .

(د) م . بنت ل . ج . أ . سنها ١٦ انتشلت من فراشها ، وعندما هم الجنود باغتصابها فرت هاربة وألقت بنفسها في بئر . . .

وغيرهن كثير .

ويظهر أن حوادث الاغتصاب كانت أفضع الحوادث التي دارت في تلك الليلة المزعجة . وذكر لنا أن كثيراً من الأمهات كن يخرجن بناتهن من الغرف ، ويدفعنهن إلى البئر للارتقاء فيها . . .

ولمّ شعثه ، وجمع شملُ أبنائه ، وجهَّهم إلى الغاصب الدخيل ،
فكافحوه كفاحاً مريراً غشيَّهم خلالها موجة عاتية من التعذيب والتنكيل
ظنها الحصم سبيل الهزيمة وطريق الدمار . . . ولكن هذا الشعب وقف
كالمارد الجبار مناضلاً عن كيانه ؛ مطالباً بحقه ، وبعد نضالٍ طويل . . .
أحرز التونسيون في ٣ يونية سنة ١٩٥٥ استقلالهم الداخلى على أساس طور
العلاقات التونسية في المستقبل نحو الاستقلال الكامل للبلاد !

وقد انضمت تونس إلى جامعة الدول العربية في أول أكتوبر
عام ١٩٥٨ ، وقد كانت منضمة إليها من قبل بروحها وشعورها ! لأن أبنائها
عرب يفخرون بعروبيتهم ، ولو كره المنافقون !
وإننا لندرجو الله مخلصين أن يسدد خطا الشعب التونسي الشقيق نحو
العزة والكرامة والمجد ، وأن يبصره بما فيه نفعه وخيره ، وأن يجنب من يتسلم
مقاليدته من أبنائه هوى النفوس وذلات الآراء ، ووسوسة شياطين الناس ،
حتى ينال استقلاله التام بسلام ، ويسير مع ركب شعوب الأمة العربية
قدماً إلى الأمام آمين !

= ومن أفظع ما ارتكبه العساكر الفرنسية في قرية تازركة قتل الرضع دوماً بالأقدام ورمياً
على الأرض .

وما حدث في قرية تازركة حدث في عشرات من القرى الأخرى . . . فأصبح لذلك كل
تونس غير آمن على حياته ، ولا على حريته ، ولا على رزقه ، وهو يتوقع الاعتداء عليه في
كل خطوة يخطوها في الشارع ، أو أن يهاجم في عقر بيته ، أو يؤخذ إلى السجن أو المعتقل
في أية ساعة من النهار أو الليل ، لا لذنب اقترفه ، ولكن لأنه تونسي .

١

تقع تونس في مكان وسط من الساحل الأفريقي الشمالي ، حيث يتغير اتجاهه العام ، ويسير من الجنوب إلى الشمال ، بدلا من أن يستمر في امتداده نحو الغرب ، وبهذا تخرج تونس من المنطقة الصحراوية ، وتدخل في حيز المنطقة التي ينزل فيها المطر غزيراً في الشتاء ، فتخصب أرضها ، ويوجد زرعها ، ويكثر عمرانها ، ولهذا أطلق عليها القادمون من الشرق عبر حف الصحراء ، تونس الخضراء .

وإن موقعها حيث همت أفريقية بأن تقترب من أوربة ، وهمت أوربة بأن تتصلب بها ، فدفعت بأشباه جزائرها نحوها ، ثم نثرت جزائرها بينهما ، فيسرت بذلك هجرة سكان كل من القارتين إلى القارة الأخرى ، وقسمت البحر المتوسط بينهما قسمين : شرقياً تشرف عليه تونس بساحلها الشرقي ، وغربياً ويطل عليه ساحلها الشمالي : إن هذا الموقع الجغرافي البديع له أثر كبير في تاريخ سكانها وخلقهم وأشكالهم وطبائعهم وخصائصهم وعاداتهم وحياتهم الاجتماعية بوجه عام .

ولا نعم شيئاً يذكر عن أصل سكان تونس الأولين ! فهل كانوا جماعة بدائية وفدت عليها من آسيا ، موطن الإنسان الأول^(١) مدفوعين بالحناف الذي أصاب وسطها وبعض بقاعها الغربية الجنوبية في العصور الواغلة في القدم وكان سبباً في هجرة جماعات كثيرة من سكانها نحو جهاتها الشرقية والجنوبية الغربية ، ومن الأخيرة إلى شمالي أفريقية سالكين إحدى الطريقتين : الطريق الشمالي عبر برزخ السويس ، مارين بمصر ، قبل العصر المطير أو بعده مباشرة^(٢) ، ثم ليبيا ؛ أو الطريق الجنوبي عبر بوغاز باب المنذب^(٣) إلى شرق أفريقية ، ومنه إلى وسطها ، ومنه إلى شماليها ، عبر الصحراء الكبرى في عصر كانت كثيرة الأمطار والنبات ، أو كانوا جماعة أوربية ، جاءوا إليها بسبب البرد الشديد الذي أصاب أوربية في آخر عصر من عصور الثلج^(٤) ، عبر مضيق جبل طارق ، منتشرين في مراكش والجزائر وتونس .

-
- (١) يرى بعض العلماء أن موطن الإنسان الأول غربى آسيا ، ويرى آخرون أنه يمكن ما في غربى آسيا أو في شمالي أفريقية .
- (٢) لقد كانت مصر في إبان العصر المطير غير صالحة لسكنى الإنسان ، ولا لعبوره إياها - وحاله البدائية حاله - إذ أنها كانت مغمورة بمياه النيل كلها أو جلها .
- (٣) كان مضيق باب المنذب إذ ذاك أقل اتساعاً مما هو عليه الآن .
- (٤) لقد مرت على أوربية عصور ثلجية أربعة .

وعلى أية حال فقد وصلت تلك الجماعة ، التي لا نعرف عنها شيئاً ، إلى تونس ، وعاشت فيها ما شاء الله لها أن تعيش ! ولم تلبث تلك الجماعة الأولى طويلاً حتى وفدت عليها جماعات أخرى بيض الوجوه^(١) ، معظمهم سود الشعور ، عسليو العيون ، وأقلهم زرق العيون ، حمر الشعور^(٢) ، ويطلق عليهم العلماء اسم البربر ! ولقد اختلف في علة تسميتهم بهذا الاسم ! فيرى بعض العلماء أنه مشتق من كلمة يونانية كان يطلقها الإغريق على الشعوب أو القبائل المتبدية ، على حين يرجعها بعضهم إلى الكلمة العربية بـ برابرا ، وهي كلمة أطلقها العرب أيضاً على سكان بلاد النوبة ! وقد يكون أصلها لفظة بيرابراتا (Beraberata) التي وردت في كتابات المصريين القدماء في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ! على أن الفرض الأخير يتعارض مع الاسم

(١) يقطع الدكتور إبراهيم رزقانه بأنهم من أصل أفريقي ، وأنهم من نسل من يسميه الإنسان الإفريقي القديم أو الحشيشي القديم ، وأنهم بعد أن استقروا في شمال أفريقيا ما شاء الله لهم أن يستقروا هاجر بعضهم إلى أوربة عبر إيطاليا وأسبانيا وافتتحوا حضارة العصر الحجري القديم الأعلى بغربها ، ويصفهم بأن قامتهم متوسطة الطول ، وبشعرهم تميل إلى السواد ورأسهم شديدة الطول ، وشعرهم أسود ناعم وجبهتهم متراجعة ، وقنطرة أذونهم عالية ، وعظام خدودهم ناعية بعض الشيء (العائلة البشرية ص ٢٨٦ - ٢٨٧) .

(٢) يقول سليجمان « إنهم لشقرتهم يمكن أن يعتقد الإنسان أنهم إسكتلنديون أو إيرلنديون ، وأن الأولاد في سن ١٥ ، ١٦ يمكن أن يعتقد الإنسان أنهم إنجليز لولا أن نسبة الشعر الأسود بينهم أكبر منها عند الأولاد الإنجليز . ثم إن الشقرة الشامة عندهم موجودة ؛ فتجد فيهم من يشبه سكان شمال ألمانيا ، ولكن هؤلاء أقلية . . . الخ (ص ٢٨٨) العائلة البشرية) .

الذى كان يطلقه المصريون القدماء على جيرانهم الغربيين ، الذين كانوا يسمونهم « ليبو » ، ويصورونهم بيض الوجه فاتحى الشعور .

ولقد اختلف الجغرافيون فى تعيين موطنهم الأول ، الذى هجره لسبب من الأسباب ، وجاءوا إلى تونس وغيرها من أقطار شمالى أفريقية :

ففریق يرى أنهم آتون من مكان ما فى آسيا^(١) . كأسلافهم . ، ويرى

(١) يرى بعض المؤرخين أنهم كنعانيون هاجروا من موطنهم الأول ، مخترقين مصر ولوبيا ، منتسبين لمازيح بن كنعان ابن سام بن نوح ، فدعوا أنفسهم « الأمازيغ » وفسروا اللفظ على أنه يعنى السادة الأحرار . . . وقد ذكر ابن خلدون أن البربر ارتحلوا مما بين النهرين وأنهم أقاموا بعض الوقت فى مصر قبل أن يقصدوا إلى شالى أفريقية «خوفاً أو طمعاً» كما فعلت من بعد دولة الحماديين جماعة عظيمة من الأعراب من صحراء مصر « ولقد ذهب هذا المذهب البحاثة الفرنسى دوما ، إذ قرر أن البربر من أبناء كنعان ، وأن بينهم وبين أهل الصعيد المصرى وجوه شبه عدة ، وأيد غيره هذا الرأى بأنه يوجد حتى اليوم « فى الزنقة ، وهى قرية فى جنوبي الجزائر . . . رسم بربرى عتيق ، منقوش على صخر يمثل الإله المصرى أمون بصورة كبش على رأسه شمس مماثلة لصورة أمون رع المنقوشة على أحد جوائظ معبد الكرنك » . . . من مقالة للأستاذ محمود عزمى ، تحت عنوان : بلاد المغرب : الكاتب المصرى .

وإن هذا الرأى لرأى عجيب ؟ فما أوجه الشبه التى يجدها البحاثة الفرنسى بين البربر وكلهم بيض الوجوه ، وبعضهم زرق العيون ، حمر الشعور وأهل الصعيد المصرى سمر الوجوه . . . ولقد فطن المصريون القدماء إلى الفارق العظيم بينهم - أى المصريين جميعاً ، بله سكان الوجه القبلى - وبين اللوبيين وهم البربر فى الدل والشكل واللون ، فصوروهم بيض الوجوه فاتحى الشعور ، بينما صوروا أنفسهم سمر الوجوه ، سود الشعور أما الرسوم التى وجدت فى إحدى قرى بلاد المغرب ، والتي تمثل الإله المصرى أمون رع . . . ، فانظر لتفسيرها
ص (١٥) . (المؤلف) .

فريق آخر أنهم آتون من أوربة ، مارين ببعض البرازخ التي كانت تيسر وصول سكانها إلى أفريقية في العصور البعيدة ، ويعزز الفريق الأخير رأيه بلمحاتهم الأوربية .

على أن الرأي الغالب أنهم جاءوا عبر البحر المتوسط^(١) من بعض جزائره ، أو أقاليمه الشمالية الشرقية ، وأنهم كانوا على درجة كبيرة من القوة والرق مكنتهم من غزو مصر والسيطرة عليها ، في بعض عصور ما قبل التاريخ ، ويرى سير فلندرزبترى العالم الأثرى الكبير أنهم منشئوا الحضارة المصرية الأولى^(٢) .

ويرى بعض المؤرخين أن قوم حور أو أوزير^(٣) من الليبو ، لأن

(١) يرى البعض أن رحلتهم من موطنهم الأصلي ، عبر البحر الأبيض المتوسط إلى شمالى أفريقية ميمث كثير من الأساطير الإغريقية التي نظمها شاعرهم هومر ، كغامرات يولسيوس وغيره من أبطال تلك الأساطير .

(٢) لقد كانت هذه الحضارة — ومدتها ألف سنة أو تزيد قليلا : بدأت منذ نحو عشرة آلاف سنة — تمتاز بميزات أهمها : إنشاء المدن الكبيرة ، وإقامة الأسوار القوية حولها ، لاتقاء غارات الأعداء ، وكثرة استعمال السفن للتجارة ، والقوارب للصيد ، وتقديم صناعة الخبز ، وزخرفة الأواني الفخارية بالرسوم الهندسية الدقيقة ، واستخدام حجر الصوان في صناعة الرماح المتفرعة ، وبعض الآلات الزراعية الأولية ، وظهور معدن النحاس واستخدامه في صنع بعض الآلات ، واستعمال الأمشاط للزينة ، وانتعال الأخفاف .

(٣) كان يعتقد المصريون أن أوزير إله الخير — وليس غريباً وافداً من الغرب أو الجنوب — هبط من السماء ومعه أخته وزوجته إيزيس ليميشا بين الناس بينايمان ويأكلان ، ويعلمانهم الحكمة ويسلكان بهم الصراط المستقيم ، ويبتدع لهم أوزير طرق الزراعة وأساليبها وآلاتها . . . وتستنبت لهم إيزيس القمح إلخ .

أساطيرهم تشير إلى أنهم آتون من الغرب ، إلى غير ذلك من الآراء .
وللبربر لغة خاصة بهم ليس لها حروف يكتبونها بها ، وقد غلبت عليها
اللغة العربية ، كما غلبت على لغات معظم الشعوب التي دخلت في دين
الإسلام ، ولكن لا يزال يتخاطب بها بعض جماعات البربر في هضبة
مطماطة وجزيرة جربة .

ولقد كان البربر في عصر ابن خلدون جيلاً متميزاً من الناس .
ولقد وصفهم بقوله :

البربر جيل من الآدميين ، سكان المغرب على القدم ، ملثوا البسائط
والجبال ، من تلولة وأريافه ، وضواحيه وأمصاره ، يتخذون البيوت من
الحجارة والطين ، ومن الخصاص والشجر ، ومن الأشعار والأوبار ،
ويظعن أهل العز منهم والغلب لانتجاع المراعى ، فيما قرب من الرحلة ،
لا يتجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس ، ومكاسبهم الشاء
والبقر ، والحليل في الغالب للركوب والنتاج ، وربما كانت الإبل من
مكاسب أهل النجعة منهم ، شأن العرب .

ومعاش المستضعفين منهم في الفلح ودواجن السائمة ، ومعاش المعتزين
من أهل الانتجاع والإظعان في إنتاج الإبل ، وظلال الرماح وقطع السابلة ،
وأكثر أثاثهم من الصوف ، ويشتملون الصماء^(١) بالأكسية المعلمة ،
ويفرغون عليها البرانس الكحل ، ورؤوسهم في الغالب حاسرة ، وربما

(١) الصماء : البردة .

يتعاهدونها بالحلوق، ولغتهم (الشلحة) من الرطانة الأعجمية، متميزة بنوعها،
وهي التي اختصوا لأجلها بهذا الاسم .

والبربر قبائل كثيرة ، وشعوب^(١) جمّة وهي هواره ، وزناتة ،
وخريشة ، ونفزة ، وكتامة ، ولواته ، وغمارة ، ومصمودة ، وصنهاجة
وما كان للبربر من الآثار ما يشهد أخبارها كلها بأنه جيل عزيز على
الأيام ، وأهم قوم مرهوب جانبهم ، شديد بأسهم ، كثير جمعهم ،
مضاهون لأمم العالم وأجياله من العرب والفرس والروم .

استقر البربر (الليبو) فيما طاب لهم من تونس ، وغيرها من أقطار
شمالى أفريقية بعد أن دفعوا بسكانها الأولين إلى أطراف الصحراء ومجاهل
الجبال ، إلاّ من خضع لهم وأقام على خسفهم ؛ ولم يلبثوا أن زرعوا أرضها ،
وأقاموا المدن فيها ، وأحاطوها بأسوار عالية متينة ، ويبدو أنهم لم يقطعوا
صلاتهم بموطنهم السابق ، وأنهم ظلوا يتجرون مع أهله حتى حل بموانئهم
الفينيقيون سادة البحار الأسبقون !

ومما لا ريب فيه أن المصريين القدماء جاؤوا هذه البلاد قاتحين أو
مبعوثين أو تجاراً ، وأقاموا فيها ما شاء الله لهم أن يقيموا ، وشيدوا مساكن
ومعابد فيها ، قبل قدوم الفينيقيين إليها بقرون عدة ، إذ أن بعض علماء
الآثار المنقبين كشفوا عن لوحات فضية عليها نقوش كباش مصرية ،
وكتابات بالهيروغليفية ! ولكن ما كشف من آثار مصرية حتى الآن غير

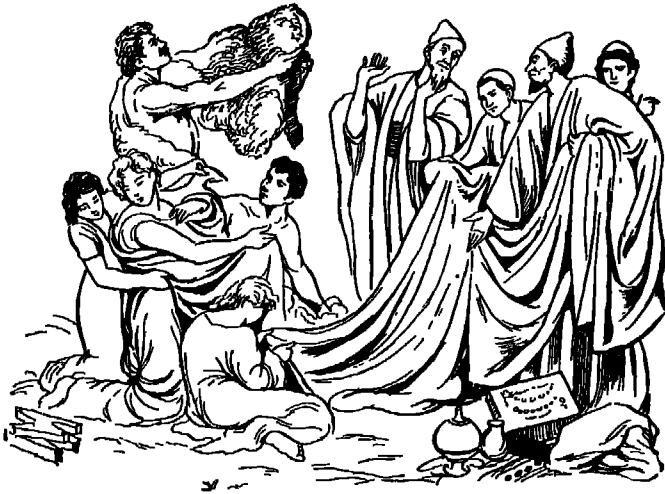
(١) انظر كتاب العائلة البشرية : دكتور إبراهيم أحمد ترققانه .

كاف لتعيين تاريخ قدومهم إلى تلك البلاد تعيناً مضبوطاً ، وتحديد مدة إقامتهم فيها تحديداً دقيقاً ، ولعل الرسم الذي وجد في قرية الزناقة على صخر يمثل الإله المصرى أمون بصورة كبش على رأسه شمس من آثارهم ! ويبدو أن بعض العناصر الجنسية الأخرى قد هبطت تونس ، واستقرت في جزائرها وبعض بقاعها الساحلية ، في زمن لا نعرفه على وجه التحقيق ، ولكنه بعد مجيء البربر إليها على أية حال . ففي جزيرة جربة وبعض أجزاء الساحل الشرقى لتونس يسكن جيل متميز من الناس ، يختلفون عن حوهم من السكان ، فهم عراض الرؤوس بين أناسى كلهم طولها ، ويمتازون فوق ذلك بقصر القامة ، وبأن وجوههم عريضة وقصيرة ، وجباههم مستديرة ، وأنوفهم قصيرة ، وهم من الجماعات التى يطلق عليهم دكتور إليت سميث « الأرمن البحرين » ويسميهم دكتور فليز « الباحثين عن المعادن » . وهم في رأيه من سكان شرق البحر المتوسط ، وأنهم كانوا قديماً — أى قبل استقرارهم في تونس — يطوفون في سفنهم بشتى أنحاءه ، ويهبطون بعض الأقطار المطلة عليه ، وربما نفلدوا إلى المحيط الأطلسى ، وأناخو ببعض أقطار غربى أوربة — باحثين عن القصدير والنحاس والذهب . وتوجد ذرارى تلك الجماعة في الوقت الحاضر في البقاع الساحلية بجنوب إيطاليا وشرق صقلية وجنوبها الشرقى ، وفي أجزاء ساحلية مختلفة من أسبانيا وفرنسا وغربى بريطانيا وشرقى أيرلاند وجنوب غربى الترويج (١) .

(١) انظر كتاب العائلة البشرية : للدكتور إبراهيم أحمد زرقانة .

٣

وجاء الفينيقيون إلى تونس ، أول الأمر ، تجاراً ، حاملين مصنوعات بلادهم^(١) ، ومصنوعات الأقطار المحيطة بها ليستبدلوا بها منتجاتها ومنتجات جاراتها . ولقد سال لعاب التجار الفينيقيين ، حين رأوا التبر والعاج بين البضائع التي كان الليبيون يعرضونها عليهم للمبادلة ، ونقلوا خبر



الفينيقيون يعرضون بضاعتهم على أهل أوربة

Ancient Carthage in The light of Modern Excavation : By Count Byron (١)

Khun De Porok. N. G. M. April 1924.

ذلك ، عند إياهم إلى فينيقية إلى شيوخ مدنهم ، فسارعوا إلى إعداد بعثات قوية ، يصحبها حرس شديد ، وأرسلوها إلى بلاد الليبو ، فقامت بتأسيس مراكز تجارية قوية في مواضع استراتيجية على سواحلها ، وسرعان ما انتزعوا من السكان السابقين - البربر - تجارة البحر والبر !

والفينيقيون سلالة من السلالات السامية يمتون بصلته القربى إلى العاموريين والكنعانيين والعبرانيين ، ويعتقد أنهم كانوا يسكنون أول الأمر في مكان ما على الساحل الغربي للخليج الفارسي ، وأن فقر موطنهم هذا ، وجذب الفيافي والقفار التي تليه غرباً ، دفعهم إلى ركوب هذا البحر الهادئ ، طلباً للرزق ؛ فكان المدرسة الأولى التي تعلموا فيها أصول الملاحة وفتونها .

أقام الفينيقيون على شواطئ الخليج الفارسي ما شاء الله لهم أن يقيموا ، ثم غادروها لسبب غير معروف ^(١) إلى بلاد الشام ، وطوفوا في أرجائها ، ومالت بهم طبيعتهم إلى أن يختاروا والمستقرهم رقعة ضيقة خصيبة مشرفة على البحر المتوسط ، ومرتكزة من الشرق على مرتفعات الجليل وسفوح جبال لبنان الكبرى ، ممتدة بين جبال كارمل في الجنوب ، وجبل كاسيوس في الشمال ! وعلى ساحل هذه الرقعة الضيقة قامت مدنهم الشهيرة صور وصيدا وعكا وبيروت وبيبلوس ، وشيدوا فيها مصانع ، بعضها للنسيج ^(٢)

(١) يعزو بعض الجغرافيين ذلك إلى تحركات عامة وهجرات جماعية ، شملت بني عمومتهم العبرانيين والكنعانيين والعاموريين ، فهجروا مواطنهم الأولى إلى بلاد الشام أيضاً .

(٢) لقد أطرى هوبر في أشعاره تفوق الفينيقين في صنع المنسوجات وصبغها بأصباغ خاصة ابتلعوها ، وتطريز الثياب ، واقتنائهم في صنع المعادن المختلفة ، وبخاصة الذهب والفضة ، والأحجار الكريمة والكهرمان والزجاج .

وبعضها لصنع الزجاج^(١) ، وأخرى لصياغة الذهب والفضة والأحجار الكريمة !

ولقد برع الفينيقيون في علوم الفلك والهندسة والحساب^(٢) ، وتفوقوا بوجه خاص في فن الملاحة وابتدعوا الحروف الأبجدية التي أصبحت أساساً اتخذها معظم الأمم لحروفهم .

ولقد استعان الفينيقيون بأرز لبنان على صنع سفنهم المشهورة ، التي جابوا بها سواحل البحر المتوسط ووصلوا عليها إلى معظم جزائره ، فكونوا بذلك من حوض ذلك البحر العتيق وحدة تجارية اقتصادية وإن لم تكن سياسية^(٣) .

وعلى الرغم من أن الفينيقيين كانوا أمة واحدة ، تربطهم روابط الجنس واللغة والدين والصفات ؛ فإنهم لم يحاولوا تكوين دولة واحدة ، متماسكة الأجزاء ، فقد كان لكل مدينة من مدنهم شأن يغنيها عن المدن الأخرى ! ولكن رغم ذلك التفكك فقد أصبحوا بفضل مهارتهم الفاتقة في الصناعة ، وكفائتهم الممتازة في التجارة ، مضرب الأمثال في الغنى والأبهة والجاه .

ظلت المستعمرات الفينيقية المبعثرة على شواطئ البحر المتوسط ، وفي بعض جزائره مراكز تجارية محضة ، ولم تحاول أن تمد نفوذها في البقاع

(١) لقد نقل الفينيقيون صناعة الزجاج من مصر ، ولكنهم برعوا فيها ، فكانوا يصنعون منه ما يشبه الأحجار الكريمة .

(٢) الفينيقيون هم الذين علموا أهل أوربة المقاييس والمكاييل .

(٣) التيارات السياسية في حوض البحر المتوسط للأستاذ محمد رفعت .

المجاورة لتلك المراكز أو تسيطر على سكانها ! ولقد شبه بعض الكتاب هذه السياسة التجارية للفينيقيين بسياسة بعض الدول الغربية في الصين قبل نهضتها الأخيرة^(١) مع فارق واحد ، وهو أن الفينيقيين ، على الضد من الغربيين ، لم تكن لهم جيوش جرارة ، وأساطيل قوية ، تسارع إلى نجاتهم إذا ما ضيق عليهم الخناق ، أو هددوا بالطرد ، ولهذا كانوا في معظم الأحيان ، إذا ما نشأ خلاف بينهم وبين أمة أجنبية ، أو مع الوطنيين ، ينذر بحرب ، يفضلون هجر المكان على الدخول في نزاع ، لا يعرفون نتائج ، لأنهم كانوا تجاراً ، ولم تكن من مصلحتهم إثارة الحروب التي تبور معها تجارتهم .



الفيينيقيون ينزلون إلى حيث أنشأوا مدينة قرطاجنة

(١) التيارات السياسية في حوض البحر المتوسط للأستاذ محمد رفعت ،

٤

أما قرطاجنة التي أنشأها الفينيقيون على رأس في الجانب الشمالى الغربى من الخليج المسمى الآن خليج تونس، فقد شذت في ذلك عن المستعمرات الفينيقية الأخرى^(١) ، فقد أغرى أهلها حسن موقعها ، وما نتج عنه من اتساع تجارتها ، ونمو ثروتها ، بالطموح إلى تكوين إمبراطورية تشمل الجزء الشمالى من تونس ، والركن الشمالى الشرقى من الجزائر ، وبعض جزائر البحر المتوسط ، وتسيطر على المستعمرات الفينيقية المجاورة ، وتعتمد على جيش مدرب وأسطول قوى ، تمكنت بهما من وقف الزحف الإغريقى من الشرق والرومانى من الشمال نحو السواحل الأفريقية .

ولقد نمت مدينة قرطاجنة نمواً سريعاً ، وزاد عدد سكانها حتى بلغوا في تقدير بعض المؤرخين ٧٠٠ ألف نسمة أو يزيدون ! وشيدت فيها القصور الفخمة ، والمعابد الضخمة ، والدور الشاهقة^(٢) ، والحمامات والمكتبات العامة .

(١) لم تكن قرطاجنة أول المستعمرات الفينيقية في تونس، فقد أسست فيها عتيقة Attica في سنة ١١٠٠ ق . م . أما قرطاجنة فقد أسست في سنة ٨١٤ ق . م . أى بعدها بثلاثة قرون تقريباً .

(٢) كانت دورها تتكون من سبع طبقات أو تزيد .

ولقد كانت مدينة قرطاجنة يحيط بها من جهة البحر سور قوى^(١) على مقربة من ساحله، أما من جهة البر فقد كانت تحصيناتها أقوى وأدق إذ كانت تتكون من خندق عميق، يليه من الداخل سور متين، يتلوه سور آخر أضخم وأعلى^(٢) وأقوى ذوأبراج، بين كل اثنين منها اثنان وخسون متراً، وكان في جوف ذلك السور الضخم بيوت لنحو أربعمئة فيل، وفوقها اصطبلات لنحو أربعة آلاف فرس، وعلى مقربة من السور من الداخل، ثكنات لراكبي الفيلة والخيل، ولنحو عشرين ألفاً من المشاة، وكان بين السور والبحر ميناء واسع، تأتي إليه السفن المشحونة بتجارة البحر، وترد إليه القوافل تحمل تجارة البر، ولكن فخر مدينة قرطاجنة ميناؤها الصناعي العظيم، المحفور داخل السور، فقد كان طوله ١٤٠٠ قدم، وعرضه ١١٠٠ قدم، وتحيط به الأرصفة والمخازن، وكانت تصل إليه السفن مارة في قناة، اتساعها سبعون قدماً، وقد كانت تقفل هذه القناة في زمن الحرب سلسلة متينة من الحديد، وتخرج من هذا الميناء العظيم قناة تدخل إلى ميناء صناعي آخر حفر في قلب المدينة، لترسو فيه السفن الحربية، وكان مستدير الشكل، طول قطره ١١٠٠ قدم، أقيمت حوله أرصفة معدة لرسو مائتين وعشرين سفينة حربية! وقد تركت جزيرة في وسط ذلك الميناء الداخلي بنى عليها قصر فخم لأمير

(١) كانت الأسوار تحيط بشبه الجزيرة التي بنيت قرطاجنة على جزء منها.

(٢) كان علو ذلك السور يتراوح بين خمسين وستين قدماً، وبمكة ثلاثون قدماً.

البحر أو قائد الأسطول !

ولقد كان القرطاجنيون طوال القامة ، بيض الوجوه ، يحفون شعور
 رءوسهم ، ويطلقون لحاهم مدبية ، وكانوا يلبسون جلابيب فضفاضة ملونة ،
 وقلنسوات طويلة مخروطية الشكل أو عمائم ، ويتتعلون الأحذية أو الصنادل .
 ولقد كانوا نساء ورجالاً مغرمين بالتزين بالحلى ، مولعين بالعطور .
 وكانوا يسرفون فى الطعام والشراب ، ويجيئون حياة طليقة أساءت إلى سمعتهم
 بين جاليات الشعوب المختلفة الأخرى فى مدينتهم !

أما نساؤهم فكان محترمات ، يشاركن الرجال فى كثير من الأعمال ،

فقد كان منهن قسيسات أو كاهنات !

وكان يسكن قرطاجنة جاليات كبيرة من المصريين والإغريق والرومان
 وغيرهم من الأمم الأخرى ! وكان يرى فى شوارعها غير أهلها والفينيقيين
 الآخرين الوافدين من المستعمرات الفينيقية الأخرى ، والسكان الأصليين من
 البربر ، تجار مصريون ، وأسبانيون ، وغاليون حمر الشعور ، وسودانيون
 من السودانين الغربى والشرقى ، وزنوج من سكان غربى أفريقيا الجنوبى !
 وقد شيدت تلك الجاليات الأجنبية معابد لها ، أضخمها وأفخمها
 معابد إيزيس وأوزيريس المصرية ، والمعابد الإغريقية . وكانت شوارع
 المدينة الرئيسية تؤدى كلها إلى تل مرتفع فى وسط المدينة ، أقيمت عليه
 قلعة (البرسا) التى كانت تحيط بها أسوار قوية بنيت فى داخلها دار
 للخزانة ، ودار لسك النقود ، وفى وسط تلك القلعة ، وعلى رأس التل

يطول معبد أشمون البديع ، الذى كان يصل إليه المتعبدون بسلام عددها ستون ! وفيه أقيمت تماثيل لإله الشمس (بعل هامان) وإلهة القمر تانيت نبي بعل ، أقدس إلهين عند القرطاجنيين .

ولقد كان إله القرطاجنيين بعل هامان مغرماً بالضحايا البشرية ، أو هكذا صورته كهانه لعباده ، ولهذا السبب كان القرطاجنيون – وبخاصة فى وقت الشدة والضيق – يقدمون له مئات الأطفال والفتية والفتيات من أبناء البيوتات الكبيرة ! وكانت تقف الأمهات ، غير متوجعات أو شاكيات ، بينا يرين فلذات أكبادهن يوضعون بين يدي الإله ، المتعطش للدماء ، فينزلقون من بينهما إلى الأتون المتقد !

ومن أغرب وأطرف ما يروى أن جيوش القرطاجنيين كانت مشتبكة ، فى يوم من الأيام ، فى حرب طاحنة مع جيوش الأعداء ، ولما لم ترجح كفة جيوشهم ، على الرغم من توسلات الكهان للإله بعل هامان ودعائهم إياه أن يكتب النصر لها ، ظنوا أنه عليهم غاضب ، وأنه سوف لا يرضى عنهم إلا إذا قاموا بتقديم الضحايا البشرية له ؛ فسيق الفتيات والفتيان إلى المعبد زمراً ، وأخذ الكهان يضحونهم واحداً بعد واحدة ، ولم يثقل أولئك الضحايا كفة جيوشهم فترجح فتنصر ، وكان قائد الجيش مع الكهان حاضراً ، ولما أتاها الخبر بأن العدو صامد فى مكانه صمود الطود الراسخ ، لا يتزعزع ولا يتزحزح رعى بنفسه فى نار بعل الموقدة ، مضحياً بها ، ابتغاء مرضاته وكسب المعركة !

٥

ولما لمح القرطاجنيون الخطر الإغريقي الزاحف من الشمال الشرقي ، سارعوا إلى التحالف مع سكان بعض جزائر البحر المتوسط ، وسرعان ما اصطدمت بعض سفنهم الحربية بالسفن الإغريقية ، ونشبت بينهما موقعة بحرية تغلبت فيها أساطيل القرطاجنيين وحلفائهم على الأسطول الإغريقي ، فوضع ذلك النصر حداً للزحف الإغريقي ، ولكنه لم يقض على قوة الإغريق قضاء مبرماً .

ولقد حدثت سياسة الخدر بالقرطاجنيين إلى أن يقوموا بتحسين مستعمراتهم تحصيناً قوياً ، ويضعوا فيها حاميات ، وأعقب ذلك احتلالهم للجزائر التي لم يكن بينهم وبين أهلها محالفات كجزيرة مالطة وجزائر البليار ، وأمدوها بالسفن والجند ، ولما شعروا بالزحف الروماني الآتي من الشمال ، سارعوا إلى عقد معاهدة تجارية مع روما تنظم تبادل البضائع بينهما ، وتحدد مناطق نفوذ كل منهما .

وعلى الرغم من أن التجارة كانت شغل القرطاجنيين الأول ، فإنها لم تلههم عن استغلال الأراضي الواسعة الحصينة ، الواقعة في جنوب قرطاجنة ،

فقاموا بإرشاد ماجو^(١) ، أمهر علمائهم في الزراعة بزراعتها^(٢) معتمدين في ذلك على الوطنيين (البربر) والأرقاء !

ولقد كان القرطاجنيون أول من قاموا باستكشافات جغرافية بحرية واسعة المدى فقد قام هانو^(٣) القرطاجني بكشف غربي أفريقية ، وترك لنا وصفاً شيقاً عن رحلته^(٤) ، كما قام أخوه هملكو برحلة إلى إنجلترا وأيرلندا ، كشف في خلالها معظم سواحل غربي أوربة !

ولقد غنت قرطاجنة زماناً قال قائلها في أثنائه : لا يجرؤ روماني أن يستحم في البحر الأبيض المتوسط إلا بإذننا وبذلك بلغت القمة ، وتم لها

(١) لقد ترك ماجو كتاباً قيماً في الزراعة ، ترجمه علماء الرومان ، واستعانوا به في الشؤون الزراعية في بلادهم .

(٢) يرى البعض أن القرطاجنيين نقلوا الزيتون من الشام إلى شمالي أفريقية ، ومن أفريقية انتقلت زراعته إلى أسبانيا .

(٣) لقد كانت رحلة هانو تجريدة استعمارية ، وكان قوامها أسعولاً قوياً ، عدد سفنه ستون سفينة عليها عدد عظيم من الرجال المسلحين والنساء ، ومشحوفة بالمؤن والذخائر ، طافت بساحل أفريقية الغربية ، وقامت بتأسيس مدن ، وتشييد معبد لإله البحر ، وصادق بعض رجالها بعض السكان ، وشاهدوا الحيوانات المفترسة كالفيلة والغوريلات ، واصطادوا ثلاث غوريلات ولما لم يستطيعوا استئناسها ، قتلوها وسلخواها ، وعادوا يحملونها إلى قرطاجنة ، ورأوا قبائل متوحشة يلبسون جلود الحيوانات ، فنفروا منهم ورموهم بالحجارة

(٤) يزعم البعض أنه قد كشف في البرازيل على وثيقة تاريخية ، مكتوبة بالحروف الفينيقية القديمة ، تثبت أن الفينيقيين قد كشفوا أمريكا قبل أن يكشفها السباليون — سكان النرويج ودانمارك — بنحو ثمانية عشر قرناً ، وقبل أن يصل خريستوف كولومب إلى بعض جزائرها بنحو عشرين قرناً .

ما تبغيه من قوة ونفوذ وسلطان !

ولم تلبث أن اصطدمت بروما ، وكانت قد شعرت بقوتها ، وبدأت بينهما الحروب البونيقية ، التي ذهبت بتفصيل أخبارها كتب التاريخ ، تلك الحروب التي خلدت قائد القرطاجنيين العظيم هنبعل (هينبال) والتي انتهت بالقضاء على إمبراطوريتهم العتيدة ، وتدمير حاضرتها قرطاجنة ، عروس البحر المتوسط آنئذ ، وهلاك أهلها الأجماد الذين فضلوا الموت حرقاً^(١) على التسليم للأعداء ، وضربوا بذلك المثل الأعلى في العزة والإباء والشمم !

ويرجع المؤرخون أسباب هزيمة القرطاجنين ، على الرغم مما أبدوه من الفداء^(٢) والبسالة النادرة في القتال ، وتفوق في القيادة ، إلى خطأ سياستهم العتيدة في استمرارهم غرباء عن أفريقية والأفريقيين ، فلم يجدوا فيهم أصدقاء يشدون أزهم ، ويحمون ظهرهم ، عند ما اشتبكوا مع عدو قوى ، لا بل على النقيض من ذلك ، وجدوا منهم أعداء ينتهزون الفرص للثورة ضدهم ، وينضمون إلى أعدائهم : فلقد كان انضمام فرسان البربر إلى الرومان سبباً هاماً في انهزام جيشهم في الموقعة الفاصلة بجامة !

(١) لقد أضرمو النار في مدينتهم الحصينة الجميلة عندما أيقنوا أنهم خسروا المعركة ، وفضلوا الموت حرقاً على ذل الأسر !

(٢) قيل إن نساهم قصصن شعورهن وفتلنها حبالا لاستخدامها في الشؤون الحربية .



القرطاجنيون يحرقون قرطاجنة ، مفضلين الموت حرقاً على ذل الأسر

استولى الرومان على إمبراطورية القرطاجين (سنة ١٤٦ ق. م.)
وأعادوا بناء قرطاجنة على أطلالها ، واتخذوها مقراً للحكامهم !
ولم يلبث أن هاجر بعض الرومان ، وبخاصة قدامى الجنود إلى
المستعمرة الجديدة التي أسموها أفريقيا ، فأقطعوا الأراضى الخصيبة
لزراعتها ، وقدمت لهم مساعدات مالية ، وحفرت في أرضهم الآبار العميقة
ومدوا بمياه العيون البعيدة ، ومياه الأمطار والسيول المخزونة بوساطة قنوات ،
وسرعان ما قامت القرى والمدن الرومانية ، ومدت بينها الطرق الجيدة ،
وشيدت فيها المعابد والملاعب والحمامات والمسارح ، لينغم بها المستعمرون
ويرفهنون بها عن أنفسهم ! وتلك كانت شنشنة الرومان أينما حلوا !
ولقد اتبع الرومان مع البربر سياسة غير سياسة القرطاجينيين ،
فعاملوهم بالحسنى ، ولم يعلوا عليهم علو القرطاجينيين ، فأقبل البربر على
اعتناق دينهم ، وسارعوا إلى التشبه بهم في الملبس والسلوك والعادات ، ولم
يمض زمن طويل حتى اندمجوا فيهم اندماجاً كلياً ! ولم يفرق ولاية الأمور
الرومانيين بين البربر والرومان في تولي الوظائف العامة^(١) ولكن لأمر ما
شدت بعض القبائل البربرية عما أجمع عليه أغلبهم ، وأبو الخضوع

(١) لقد صار أحد البربر إمبراطوراً للرومان جميعاً .

لسلطان الرومان ، ولاذوا بالجبال واعتصموا بها فكانوا مثاراً للقلاقل ،
وعاملاً من عوامل ضعف السلطة الرومانية في « أفريقيا » .
ولقد انتهز أحد الحكام الرومان اضطراب الأحوال في الإمبراطورية
فاستقل « بأفريكا » .

ولما همت روما بإرسال حملة لتأديبه ، دفعه خوفه إلى أن يستنجد
بالوندال^(١) ، ظاناً لحرقه وفساد تديره أنهم يسارعون إلى نصرته ثم يرجعون
إلى بلادهم عندما يتم له النصر ! ولكن خاب فأله ، فقد جاءه جنسريق ملك
الوندال في جيش بلج واستولى على قرطاجنة ، وفر الحاكم الخائن المخدوع
يعض كفيه ندماً !

ولم يكتف الوندال بأفريكا ولكنهم وسعوا ملكهم جنوباً ، وعاملوا
البربر بالرفق واللين فقالوا إليهم وانضوا تحت لوأهم ، وانضموا زرافات إلى
جيوشهم المقاتلة ، وأعد الوندال أساطيل استولت على كثير من جزائر البحر
المتوسط ، وغزت روما في عقر دارها !

ودام ملك الوندال في شمالي أفريقية ما دامت صفاتهم الحربية
وأخلاقهم المتينة القوية ! ولكنهم سرعان ما أبطروهم الغلب والسلطان ،
فانحطوا إلى درك الملذات والشهوات ، وفقدوا بذلك صفاتهم وأخلاقهم
القوية ، فانتهز قبائل بربر الجنوب فرصتهم وأعلنوا استقلالهم ، ولم يلبث

(١) الوندال من القبائل الجرمانية التي هاجرت من شمالي أوروبا الوسطى إلى إسبانيا
واستقروا في جنوبها الشرقي ، وسُميت أندلوسيا (الأندلس) باسمهم .

الوندال أنفسهم أن تنازعوا ففشلوا ، وذهبت ريجهم باستيلاء الروم الشرقيين
أو البيزنطيين على أفريقيا وطردهم منها !
ولم يرسم البيزنطيون خطا الرومان في سياستهم للبربر بمعاملتهم
بالحسنى ، ولكنهم على النقيض لم يراعوا لهم حقوقاً ، واستعلوا عليهم ،
وعاملوها معاملة خشنة قاسية ، وأرهقوهم بالضرائب والإتاوات الفادحة ،
فانفضو من حولهم ، وتربصوا بهم الدوائر !
وودّوا لو تدول دولتهم !
ودالت دولتهم على يد العرب المسلمين !

٧

ظهر الإسلام في جزيرة العرب ، وانبعثت منها دعوته : ديمقراطية ،
حكيمة ، متواضعة ، في زمن العنجهية والأرستقراطية المتعالية ، معلمة ،
مهذبة ، في عصر ساد فيه الجهال واستطالوا ، مبصرة في عهد عميت فيه
العيون والقلوب عن الحق والعدل والإحسان ، هادية إلى الرشد ، في وقت
تاه الناس في أثنائه ، في غياهب الغي والضلال ، عطوفة في إبان وأد فيه
بعض الناس فلذات أكبادهم !
ولقد كان العرب دعاة الإسلام ، أول الأمر ، لأنه ظهر أول ما ظهر
في بلادهم ، وعلى يد نبي كريم من أنفسهم !

ولقد كانوا قبل إسلامهم أمة مستضعفة^(١) ، لتفكك عراهم وانقسامهم قبائل ، وعشائر ، وبطوناً ، لا يخضعون لسultan عام ينظم شؤونهم ، ويأخذ حق ضعيفهم من قويمهم ، ويدافع عنهم ، ويذب عن حياتهم ، وكانت لذلك تقوم الحروب بينهم لأنفه الأسباب ! وكانوا نهياً مقسماً بين الدول القوية المحيطة بهم ، فدانت لحم وجدام وشييان وبتون من ربيعة في العراق للفرس . وخضعت غسان في الشام للروم ، واستولى الحبشيان ، ومن بعدهم الفرس على اليمن الحضراء .

وكان العربي بفطرته قوياً متيناً شجاعاً مقداماً صبوراً ، ولكن كانت آفة العرب انقسام العرب وتناكرهم ، كما قدمنا ، وما أبلغ ما وصفهم به الرافعي حيث يقول :

« أى قوم كان هؤلاء الجفأة ، وهم لم يستصلحوا أنفسهم إلا بما يفسد جماعتهم ، ولم يأبوا أن يراموا للذل غيرهم ، إلا ليضرب بعضهم الذلة على بعض ، ولم يتخذوا السيف ناباً إلا لياًكلهم ، ولا الحرب ضرساً إلا لتمضغهم » ، وكانوا أهل جزيرة واحدة ، وكانهم في تناكرهم أهل الأرض

(١) وصفهم الطبري في تفسير قوله تعالى : « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلاً ، وأشقاء عيشاً ، وأبيته ضلالة ، وأعراه جلوداً ، وأجوعه بطوناً ، معكوبين على رأس حجر بين الأسدين فارس والروم . لا والله . ما في بلادهم يومئذ شيء يحسدون عليه . . . والله ما نعلم قبيلة يومئذ من حاضر الأرض كانوا فيها أصغر حظاً وأرق فيها شأناً منهم ، حتى جاء الله عز وجل بالإسلام فورثكم به الكتاب ، وأحل لكم به دار الجهاد ووسع لكم به الرزق ، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس ! !

كلها من قاصية إلى قاصية» (١) .

فلما اتحدوا لأول مرة تحت لواء الإسلام ، ظهرت صفاتهم الفطرية الحميدة ، وشعروا بالعزة والقوة والمنعة ، فخرجوا من جزيرتهم بدينهم الحديد كسيول جزيرتهم الجارفة ، منحدرين شمالاً ، ثم شرقاً وغرباً ، « يرفعون على كل مذلة صولة ، وينحيطوا جوانب العالم الممزق بيلير من الأسنة ، وراءها خيوط من الأعنة ، حتى أصبح تاريخ الأرض عريباً ، وصار بعد الذلة والمسكنة أيباً ، واستوثق من الأمر ما لم ترؤ الأيام مثل خبره لغير هؤلاء العرب ، حتى كأنما زويت لهم جوانب الأرض ، وكأنما كانوا حاسبين يمسحونها ، لا غزاة يفتحونها ، فلا يتدئ السيف حساب جهة من جهاتها حتى تراه قد بلغ بالتحقيق آخره ، ولا يكاد يشير إلى قطر من أقطارها ، إلا أراك كيف تدور عليه الدائرة ، وإن هذا الأمر لحقيق أن تذهب في تعليه نفوس الحكماء ، في ألوان من المعاني متشابه وغير متشابه ، فإنما هو أمر إلهي ، كيفما أدرته ، رأيت في جانبه الذي يليك ضوءاً كضوء الصواعق، وحركة كحركة الزلازل ، وقوة كالتى تتسلط بها السماء على الأرض» (٢) .

نفذ العرب المسلمون إلى أفريقية ، بعد أن استولوا على الشام وجعلوها مركزاً لهم ، مخترقين برزخ السويس ، واستولوا على شمالى أفريقية في سهولة

(١ ، ٢) مصطفى صادق الرافعي ، من كتاب صور إسلامية .

ويسر وحسن استقبال من السكان في بعض أجزائه كمصر ، وبعد قتال مرير واستسلام وانتفاض دام سبعين عاماً أوزيد ، في بعض أجزائه الأخرى كتونس^(١) (أفريكا) ؛ وأدالوا دولة الروم الشرقيين فيه ، تلك الدولة التي

(١) لقد ثار البربر تحت إمرة كسيلة وهزموا العرب هزيمة نكراء في موقعة قتل فيها عقبة بن نافع قائدهم .

وثاروا أيضاً تحت قيادة الكاهنة ، وطاردوا العرب إلى برقة ! ولقد وسوس إلى الكاهنة شيطانها فخطبت قومها وقالت : « إنما يطلب العرب من المغرب مدنه وما فيها من نضة وذهب : ونحن نريد المزارع والمرعى ، فالرأى أن نخرب هذه المدن والحصون ، ونقطع أطماع العرب منها » . وفي ذلك يقول ابن خلدون : « كانت المدن والضياع من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحداً ، فخربت الكاهنة ديار المغرب ، وجاست بالفساد خلاله ، فشق على البربر واستأنموا إلى حسان (قائد العرب المهزوم) فأمهم . . . وهذا يعنى انقسام البربر على أنفسهم ، الأمر الذي سهل على العرب إخضاعهم » الجغرافية التاريخية الإسلامية للأستاذ الكبير محمد أحمد حسونه :

ولا نعرف السبب في غلبة اسم الكاهنة على هذه الوطنية المقاتلة : ولقد ذهب المؤرخون في سبب ذلك مذاهب شتى ، ويفلب على الظن أن العرب هم الذين أطلقوا عليها ذلك الاسم بعد قتلها ومعرفة قصتها التي نجملها فيما يلي :

لقد كان اسمها داهية ، وكانت زوجة لرئيس قبيلة جراوة البربرية ، التي كانت تقيم في جبال أوراس الحصينة وقد كان لها منه ابنان ، ولما حضرته الوفاة ، أوصى لابنيه وكانا غلامين صغيرين برياسة القبيلة من بعده ، على أن تكون زوجته داهية وصية عليهما ، لما يعرف فيها من الحزم والعزم وقوة الشكيمة والبصر بالأمور . وحفظت داهية بدهائها وقوة شخصيتها تراث أبيهما .

وجاء جيش المسلمين تحت قيادة حسان بن النعمان الغساني لغزو تونس ، واستولى على كثير من بقاعها ، ولما اقترب من جبال أوراس ، انحدرت إليه داهية من حصون جبالها على رأس جيش لجب ، انحدار السيل الجارف ، فاكتسحت جيش حسان ، فتقهقر إلى برقة تاركاً بعض أصحابه أسرى في يدها !

كلها من قاصية إلى قاصية» (١) .

فلما اتحدوا لأول مرة تحت لواء الإسلام ، ظهرت صفاتهم الفطرية الحميدة ، وشعروا بالعزة والقوة والمنعة ، فخرجوا من جزيرتهم بدينهم الجديد كسيول جزيرتهم الجارفة ، منحدرين شمالاً ، ثم شرقاً وغرباً ، « يرفعون على كل مذلة صولة ، ويخيطوا جوانب العالم الممزق بإبر من الأسته ، وراءها خيوط من الأعنة ، حتى أصبح تاريخ الأرض عربياً ، وصار بعد الذلة والمسكنة أيماً ، واستوثق من الأمر ما لم ترؤ الأيام مثل خبره لغير هؤلاء العرب ، حتى كأنما زويت لهم جوانب الأرض ، وكأنما كانوا حاسبين لمسحونها ، لا غزاة يفتحونها ، فلا يبتدئ السيف حساب جهة من جهاتها حتى تراه قد بلغ بالتحقيق آخره ، ولا يكاد يشير إلى قطر من أقطارها ، إلا أراك كيف تدور عليه الدائرة ، وإن هذا الأمر لحقيق أن تذهب في تعليله نفوس الحكماء ، في ألوان من المعاني متشابه وغير متشابه ، فإنما هو أمر إلهي ، كيفما أدرته ، رأيت في جانبه الذي يليك ضوءاً كضوء الصواعق ، وحركة كحركة الزلازل ، وقوة كالتى تتسلط بها السماء على الأرض» (٢) .

نفذ العرب المسلمون إلى أفريقية ، بعد أن استولوا على الشام وجعلوها مركزاً لهم ، مخترقين برزخ السويس ، واستولوا على شمالي أفريقية في سهولة

(١ ، ٢) مصطفى صادق الرافعي ، من كتاب صور إسلامية .

ويسر وحسن استقبال من السكان في بعض أجزائه كحصر ، وبعد قتال مرير واستسلام وانتقاض دام سبعين عاماً أويزيد ، في بعض أجزائه الأخرى كتونس^(١) (أفريكا) ؛ وأدالوا دولة الروم الشرقيين فيه ، تلك الدولة التي

(١) لقد ثار البربر تحت إمرة كسيلة وهزموا العرب هزيمة نكراء في موقعة قتل فيها عقبة بن نافع قائدهم .

وثاروا أيضاً تحت قيادة الكاهنة ، وطاردوا العرب إلى برقة ! ولقد وسوس إلى الكاهنة شيطانها فخطبت قومها وقالت : « إنما يطلب العرب من المغرب مدنه وما فيها من فضة وذهب : ونحن نريد المزارع والمراعي ، فالرأى أن نخرب هذه المدن والحصون ، ونقطع أطماع العرب منها » . وفي ذلك يقول ابن خلدون : « كانت المدن والضياع من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحداً ، فخربت الكاهنة ديار المغرب ، وجاست بالفساد خلاله ، فشق على البربر واستأمنوا إلى حسان (قائد العرب المهزوم) فأمهم . . . وهذا يعنى انقسام البربر على أنفسهم ، الأمر الذي سهل على العرب إخضاعهم » الجغرافية التاريخية الإسلامية للأستاذ الكبير محمد أحمد حسونه :

ولا نعرف السبب في غلبة اسم الكاهنة على هذه الوطنية المقاتلة : ولقد ذهب المؤرخون في سبب ذلك مذاهب شتى ، ويغلب على الظن أن العرب هم الذين أطلقوا عليها ذلك الاسم بعد قتلها ومعرفة قصتها التي نجملها فيما يلي :

لقد كان اسمها داهية ، وكانت زوجة لرئيس قبيلة جراوة البربرية ، التي كانت تقيم في جبال أوراس الحصينة وقد كان لها منه ابنان ، ولما حضرته الوفاة ، أوصى لابنيه وكانا غلامين صغيرين برياسة القبيلة من بعده ، على أن تكون زوجته داهية وصية عليهما ، لما يعرف فيها من الحزم والعزم وقوة الشكيمة والبصر بالأمور . وحفظت داهية بدهائها وقوة شخصيتها تراث أبيهما .

وجاء جيش المسلمين تحت قيادة حسان بن النعمان الغساني لغزو تونس ، واستولى على كثير من بقاعها ، ولما اقترب من جبال أوراس ، انحدرت إليه داهية من حصون جبالها على رأس جيش لجب ، انحدر السيل الجارف ، فاكتمسحت جيش حسان ، فتهتقر إلى برقة تاركاً بعض أصحابه أسرى في يدها !

لقى منها سكانه جميعاً من الاضطهاد الديني والظلم والعسف والجور ما

ومن الغريب أنها أطلقت أولئك الأسرى ، من غير مفاوضة ، أو وعد بالفداء ، واحتفظت لأمر في نفسها ، بواحد منهم فقط ، وكان اسمه يزيد بن خالد .

وجاءت داهية بطعام ، وطلبت من يزيد وابنيها أن يأكلوا منه فأكلوا ، وبذلك ارتبطوا برباط أخوة ، حسب عرف قبيلة جراوة ، لا تقل عن إخوة الدم متانة وقوة !

وجاء لحسان المدد ، فعزم على إعادة الكرة على داهية ، فأرسل إلى يزيد بن خالد ، في الخفاء رسولا ، يستقصي أخبارها ، فاستجاب يزيد ، وكتب إليه كتاباً مفصلاً ، ووضعه في خبز وأعطاه للرسول زاداً ، فما كاد الرسول يغييب عن الأنظار حتى خرجت داهية ، ناشرة شعورها تولول وتقول : « يا بني هلاككم فيما يأكله الناس » !

وجاء يزيد من حسان رسول آخر ، فكتب له كتاباً ، فأخفاه الرسول في قربوس سرجه ، وانفلت إلى جيش المسلمين ، فخرجت داهية ناشرة شعرها ، تردد قولها : « يا بني إن هلاككم في شيء من نبات الأرض » !

وسار حسان بجيشه إليها ، ولما قارب ديارها ، خرجت ناشرة شعرها ، فهرع الناس إليها ، فصاحت بهم : يا بني انظروا ماذا ترون في السماء ؟ قالوا : « نرى شيئاً من سحاب أحمر » .

قالت : لا وإلهي ! ما هي إلا زهج خيل العرب قد أقبلت عليكم ثم نادى يزيد بن خالد قائلة له : إنما تبنيئك لمثل هذا اليوم ، فأوصيك بأخويك خيراً ، فانطلق بهما إلى قومك وخذ لهما أماناً . .

وأعدت جيشها وسارت للقضاء حسان ، وانهمز جيشها ، وفرت بصنمها الذي كانت تعبده من دون الله .

وعرفت داهية بكهانتها بأنه قد جاء أجلها ، وأخبرت بذلك يزيد ، فقال لها : « فإن كان الأمر كما تزعمين فارحلي من البلد » .

فقالت له : « كيف وأذا ملكة ، ومن العار أن تفر الملوك ، فإذا فررت قلدت قوى عاراً لا يمحي إلى آخر الدهر » .

وقد صدقت كهانة داهية إذ تعقبها حسان هي وفلول جيشها ، ودارت معركة حمى وطيمسها =

توجهوا له ، وكره بعضهم الحياة معه .

وعلى الرغم من أن البربر ثاروا ضد العرب مرات فلأنهم سكنوا إليهم آخر الأمر لما لقوا منهم من التسامح والمساواة ، والمعاملة الطيبة ، والعدل واحترام لمعتقداتهم ومقدساتهم^(١) ، وما لبثوا أن ارتضوا الإسلام ديناً ، وسارعوا إلى تعلم اللغة العربية لغة القرآن الكريم واندمج العنصران : البربر والعرب وأصبحت أمة إسلامية واحدة^(٢) ، اشترك أبناؤهما ، على قدم

وخرت في أثنائها داهية صريمة ، وقد جادت بنفسها دفاعاً عن وطنها الغالي .

هذه قصة داهية الكاهنة !

فإن صدقت كانت من أروع قصص البطولة والفداء !

(١) كتب هريبرت فيفيان في كتابه تونس : « لقد جاء العرب بأكل تقاليد انتسامح والفروسية والشهامة . . . وأوجد بساطة عرفها التاريخ ، فبعد ظلم روما الشنيع ، وفظاظة الوندال ، وفساد البيزنطيين ، أشرفت شمسهم وضاء فقشمت فظائع وأهوال ليل طويل ظلامه دامس » .

(٢) لقد وصف مؤرخ فرنسى هذا الحدث التاريخي العظيم قال : « هذه نتيجة تستحق الإعجاب ، إذ أنه قلما يحدثنا التاريخ عن الاستعمار على وجه الكرة الأرضية وفق إلى مثل هذا النجاح » . ويقول مؤرخ آخر من غير المسلمين : « حقاً إن تأثير الفاتحين الأقدمين (يعنى للمغرب) كان مقصوراً على النطاق الضيق الخصب المحاور لساحل ، وكانت النتيجة الحتمية لهذا أن سكان هذا النطاق وحدهم اعتنقوا المسيحية أيام الرومان والبيزنطيين ، أما فيما عدا ذلك ، فإن السكان لم يتأثروا تأثراً عميقاً بالحضارة الرومانية ، ذلك لأن الرومان والبيزنطيين كانوا يعيشون غالباً في المدن الساحلية . أما صيغ جموع البربر بصيغة عربية وتحويلهم إلى عقيدة الإسلام ، وتجنيد جنود منهم يتسابقون في مضمار الفتوح ، فذلك معجزة الإسلام التي مكنت له من إنشاء وطن جديد ، استعان به في ارتقاء سلم الزعامة العالمية » (الجغرافية التاريخية للإسلام) .

المساواة في الفتوحات الإسلامية الجديدة^(١) .

وأسس العرب المسلمون في تونس^(٢) مدينة القيروان لتكون مركزاً لهم ومعقلاً يلوذون به إذا ما ضغطة حال اضطرتهم ، ومركزاً لتجمع جيوشهم يشبون منه إلى فتح جديد !

ولقد كان موقع القيروان موقعاً استراتيجياً بديعاً دل على عبقرية وفراصة من اختاره . فهي في بقعة زراعية تكفي غلاتها لتغوين سكانها وحاميتها إذا هددوا بحصار ، وبمنأى عن الساحل لتكون في مأمن من أساطيل أعداء ما وراء البحر المتوسط ، وفي مواجهة جبال أوراس ، معقل البربر الحصين الذين كانوا ينحدرون من ثنيتها انحدار السيول العارمة ، فيياغتون العرب الفاتحين ، ويكبدونهم خسائر فادحة ، وهي على الطريق القادم من الشرق ، يأتيا عليها المدد في سرعة ويسر ، كما يسهل على حامياتها الانسحاب إلى برقة عند الاضطرار !

ولقد وفد إلى القيروان وإلى غيرها من جهات تونس كثير من الدعاة

(١) لقد كان طارق بن زياد القائد المظفر وقاتح الأندلس بربرياً .

(٢) اختط عقبة بن نافع مدينة القيروان ، وبنى بها المسجد الجامع ، وبنى للناس مساكنهم ومساجدهم ، وكان دورها ثلاثة آلاف وستمائة باع ، وكلمت في خمس سنين . وفي القرن الرابع كانت مصراً بهياً عظيماً ، قد جمع أصداد الفواكه والسهل والجبل مع علم كثير لا ترى أرفق من أهلها . . . فهي معجزة المغرب ، ومركز السلطان ، وأحد الأركان ، أرفق من نيسابور ، وأكبر من دمشق ، وأجل من أصبهان ، وجامعها أكبر من جامع ابن طولون بأعمدة من الرخام ، ومفروش بالرخام ! (ابن خلدون) .

٣٩

والفهاء ليدعوا السكان إلى الإسلام ، ويفقهون المسلمين المحدثين في أمر دينهم ، كما هاجر إليها قبائل وبطون عربية ، واتخذوها مقراً لهم ومقاماً ، كما استقدم إلى تونس ألف من صناع مصر الحاذقين في صناعة السفن لإنشاء مصنع لبناء السفن على مقربة من قرطاجنة ، في المكان المعروف حتى اليوم بدار الصناعة !

جاء أولئك الصناع المصريون المهرة بأسرهم ، واتخذوا تونس لهم وطناً
ثانياً !

واستبدل المسلمون بميناء قرطاجنة الواقعة على البحر المتوسط مباشرة ، وكانت لذلك معرضة لهجمات الروم ، استبدلوا بها بلدة صغيرة قديمة واقعة على برزخ جبلي ، يفصل بين سبخة وبحيرة قليلة الغور ، يفصلها عن البحر برزخ ، ولأجل أن يوصلوا البحيرة بالبحر حفروا في البرزخ القائم بينهما قناة ضيقة ، طولها عشرة كيلومترات ! وبذلك أصبحت تونس ، وهي اسم تلك البلدة الصغيرة القديمة ميناء آمناً يطمئن المسلمون إلى سكناه !

وإن لهذا الميناء الحديد المزايا التي كانت لقرطاجنة ، والتي تقدم
تعديدها !

وسرعان ما أصبح للمسلمين أسطول حربي قوى تمكنوا به من الاستيلاء على صقلية ومالطة وعلى سردينيا وكورسيكا وميورقة ومنورقة وقبرص ، وغزوا

بعض أقطار جنوبي أوربة^(١) وقامت ببعض هذه الجزائر دول إسلامية ، غنت زماناً عزيزة منيعة مرعية الجانب ، وأصبح البحر المتوسط بحيرة إسلامية . وراجت التجارة في هذا الجزء الغربي من الدولة الإسلامية رواجاً عظيماً في البر والبحر ، وأعقب ذلك نهضة عامة شملت الزراعة والصناعة والرعى والعمارة ، وازدهار للأدب ، وتقدم للعلم ، وازدياد في الحركة الفكرية !

٨

عود على بدء

ظلت تونس بعد الفتح العربي يحكمها ولاية من قبل خلفاء دمشق وبغداد حين من الدهر (من سنة ٧٨ هـ إلى سنة ١٨٤ هـ) ثم جنح أهلها للاستقلال ، فقامت فيها دولة بني الأغلب البربرية (١٨٤ هـ - ٢٩٦ هـ)

(١) وفي ذلك يقول ابن خلدون : وكان المسلمون قد غلبوا على بحر الروم (البحر المتوسط) من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل ميورقة ومنورقة ، وسردانية وصقلية وماطلة وقبرص . والمسلمون خلال ذلك قد تغلبوا على الأكثر من بلجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية ذاهبة ، والعساكر الإسلامية تجيز البحر في أساطيلهم من صقلية إلى البر الكبير المقابل له . . . وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرق منه من سواحل الفرنجة والصقلية لا يملونها ، وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الأسد بفريسته !

مستقلة استقلالاً ذاتياً مع الاعتراف بدولة الخلافة اسمياً ، واستمرار الخطبة للخليفة !

وفي أواخر الدولة الأغلبية انتشرت في المغرب دعوة العبيديين أو الفاطميين ، فأصاخ لها البربر وتحمسوا لها ، وانضموا تحت لوائها ، وأدالوا دولة بنى الأغلب ، ومكنوا بذلك لقيام دولة الفاطميين ! واتسع ملكهم ، وترامت أطرافه ، وانتشر مذهب الشيعة بين الناس ، ولا بدع فالناس على دين ملوكهم !

ولما استتب الأمر للفاطميين في بلاد المغرب جميعاً ، زحف جيشهم إلى الشرق ، واستولى على مصر ، وأسس قائدهم المظفر جوهر الصقلي مدينة القاهرة ، فانتقل إليها الفاطميون ، واتخذوها عاصمة لهم ، وتبعهم إليها رجال الدولة ودعاتها وجندها ، فخلا جو بلاد المغرب أو كاد من الشيعة ، فتنفس أهل السنة الصعداء ، وشعروا بزوال كابوس كان جائئاً على صدورهم ، فثاروا على من بقى منهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً .

وانحاز ابن باديس ، وكان قد استخلفه الفاطميون على المغرب ، إلى الشعب الثائر ، لأنه كان سنياً متنطعاً يكره الشيعة والشيعة ، وتنكر للفاطميين ، وأبطل الخطبة لهم ، وأمر بأن يخطب للخليفة العباسي !

وصل الخبر إلى الخليفة الفاطمي ، وشاور وزراءه ، فأشاروا عليه (١) بأن يرمى ابن باديس بقبائل بنى هلال وسليم ورياح وزغبة ، وكانوا قد

(١) صاحب الرأي في إرسال بنى هلال إلى تونس هو الوزير اليازورى ا

هاجروا من بلاد العرب إلى مصر^(١) ، وكان الخليفة الفاطمي قد ضاق بهم ذرعاً لعبتهم وإخلافهم بالأمن^(٢) ، فيضرب بذلك عصفورين بحجر واحد ! فاستصوب رأيهم ، ونزل عليه ، فأرسل إلى هذه القبائل ، واستألمهم إليه ، ووصلهم بالمال ، وأمدهم بالإبل والذخيرة ، وخرجوا من مصر وكان عددهم أربعمئة ألف أو يزيدون، وساروا نحو الغرب كالجراد المنتشر يأكل كل نابتة خضراء ، وانتهوا إلى تونس ، واكتسحوا أمامهم جيش ابن باديس وانتشروا في البلاد ، وطغوا فيها وأكثروا الفساد والحراب^(٣) في شتى نواحيها ، وأشاعوا الذعر بين الناس .

ولقد كان قدوم هذه القبائل إلى تونس منشأ قصة أبي زيد الهلالي ، تلك القصة الشعبية الرائعة ، التي لا يزال الشعراء ينشدونها بمصاحبة الربابة والقصاص يقصونها ، ويستمتع إليها آلاف الناس في المقاهي والموائد والأسفار في شتى ربوع الوطن العربي ! كما كان لقدومهم إليها نتائج واسعة المدى على سكانها^(٤) ، فقد زادت بهم نسبة العنصر العربي ،

-
- (١) جاء بنو هلال إلى مصر في عهد الخليفة العباسي أبي العباس السفاح الذي أقطعهم أرض بلبيس بمديرية الشرقية مكافأة لهم على انضمامهم إلى العباسيين ضد الأمويين !
- (٢) وقيل لأن القحط كان قد اشتد في مصر في تلك السنة .
- (٣) فقد أصبحت القيروان ومدن أفريقية خراباً تلتهما النيران وتحصد أهلها سيرف السفاحين من الغزاة ، وفتح العلماء في أمنهم واستقرارهم ، فخرجوا يبحثون عن ملاذ لهم من هذه الفتنة : (الإسلام والثقافة العربية في أفريقية) للدكتور حسن أحمد محمود ، ص ١٦٢ .
- (٤) يقول ابن خلدون في مقدمته : . . . لما جاء إليها بنو هلال وبنو سليم ، منذ أول المائة الخامسة ، وتمرسوا بها ، ... لحق بها ، وصادت بسائلها خراباً كلها ، بمد أن=

ونقص عدد البربر فيها ، لاضطرار بعض القبائل البربرية تحت ضغطهم إلى ترك أوطانهم والهجرة إلى واحات الصحراء الكبرى والوديان الحصية لبعض هضابها ، ومنها سار فريق منهم إلى شمالي السودان الغربي ، واختلطوا بأهله وصاهروهم ، ونشروا الدين الإسلامي واللغة العربية بينهم ! وكان لهذا كله أثر كبير في سكانه من حيث اللون واللحمات والعادات والتقاليد والملبس والمسكن وحياة الناس بوجه عام ! كما كان له الفضل الأول في قيام دول إسلامية قوية فيه (١) !

ولقد تلا وصول بني هلال فترة اضطرب في أثنائها جبل الأمور في

= كان ما بين السودان والبحر الرومي كلها عمراً ، تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وعمائل البناء وشواهد القرى والمدامر (المدن الصغيرة في لغة أهل المغرب) .

(١) لم يكن تأثير بني هلال قاصراً على سكان تونس والصحراء وشمالي السودان الغربي ، ولكنه جاوزه إلى سكان أفريقية كلها شمالي خط الاستواء ، ولم يقف ذلك التأثير عند تزحزح عام ، وتحركات شاملة للجماعات والعناصر المختلفة في هذا القسم الكبير من القارة ، واستقرارهم في بقاع جديدة منه ، واتصالهم بجيرانهم الجدد اتصالاً وثيقاً في لمحاتهم الجنسية ولغاتهم ومعتقداتهم وسلوكهم العام ، وأحدث تغييراً - قل أو كثر - في ملابسهم وطراز مساكنهم .

ولقد نشأ عن اتصال الحاميين الرعاة بالزنوج المزارعين وتزاوجهم عناصر جنسية جديدة كالقولاني والفوربا والحوصة والماندنج .

ولقد اضطرت بعض القبائل الزنجية إلى الرحيل من أوطانهم ، وآوا إلى الغابات والهضاب العالية واستبدلوا حرفة الصيد أو الجمع والالتقاط مضطرين بحرفة الزراعة التي أصبحت في بيئتهم الجديدة مستحيلة .

تونس ، وسادت الفوضى في أنحاءها^(١) فانهزها الأوربيون الذين كانوا يتر بصون بها الدوائر ، فانقضوا على جزائر البليار وسردنية وصقلية واستولوا عليها ، وغزوا السواحل التونسية بأساطيلهم^(٢) سنة ٥٤٣ هـ واستولوا على بعض ثغورها ، ونهبوا ما في قصورها من ذخائر نفيسة .

ولكن لم يدم ذلك الكابوس الأوربي طويلا ، فقد جاء من المغرب الأقصى عبد المؤمن بن علي الزناتي البربري^(٣) أمير الموحدين على رأس جيش لخب وطرد النورمانديين من البلاد^(٤) ! وضمت بذلك تونس إلى

(١) « يرى بعض المؤرخين أن غارة الهلالية على تونس شديدة الشبه بغارات القبائل الجرمانية على الدولة الرومانية في القرنين الخامس والسادس ، فقد قوض الهلاليون صرح الإمارة التونسية وأنشأوا إمارات عربية صغرى يقانل بعضهم بعضاً ، وتحيل البلاد إلى أتون ملتهب من الاضطرابات والفوضى ! وكذلك فعلت القبائل الجرمانية بالإمبراطورية الرومانية » (الإسلام والثقافة العربية بأفريقية) للدكتور حسن أحمد محمود ص ١٦٢ .

(٢) لقد أتى على الأساطيل الإسلامية حين من الدهر سيطرت فيه على البحر المتوسط ، وأصبحت موضع خوف دولة الأوروبية وذعرهم ، ولكن تفرق كلمة المسلمين ، وفي الأندلس بخاصة ، وانتقال الأسطول الفاطمي إلى مصر أضعف قوتها في غربيها ، حدث ذلك في الحين الذي بدأت فيه معالم النهضة واتحاد الكلمة تلوح في سماء أوربة ، وقويت أساطيلهم . نفس الكتاب ص ١٦٣ .

(٣) لقد عظم سلطان الموحدين في عهده حتى شملت دولتهم برقة وتونس والجزائر والمغرب والأندلس .

(٤) يبدو أن نصارى تونس ويهودها انضموا إلى غزاة النورمانديين ضد مواطنيهم المسلمين ، فلما طرد الأمير عبد المؤمن بن علي النورمانديين ، وعرف خيانتهم لوطنهم عاقبهم عاقاباً شديداً ، فقتل بعضهم ، وأجبر بعضهم على اعتناق الإسلام ، وفرض ضريبة الرأس على من بقى منهم ولم يعتنق الإسلام ، ففر كثير منهم إلى إيطاليا وإسبانيا وألمانيا - انظر ابن الأثير والتيجاني .

دولة الموحدين !

وفي عهد عبد المؤمن بن علي أصبحت مدينة تونس^(١) لأول مرة عاصمة أفريقيا (تونس) .

ولم تعمر دولة الموحدين في أفريقية طويلاً ، فقد دالت ، وخلفتها دولة

(١) لقد زار العبدري الرحالة المشهور تونس سنة ٦٨٨ هـ ووصفها في رحلته بقوله :

« مدينة تونس مطمح الآمال . . . ومحط الرحال ، من الغرب والشرق ، وملتقى الركاب والفلك ، وناظمة فضائل الدين في سلك ، فإن شئت أصبحت في موكب ، وإن شئت أبحرت في مركب ، كأنها ملك والأرباض لها إكليل ، وأرجاؤها روضة باكرتها ريح بليل .

وهذه المدينة - كالأها الله - من المدن العجيبة الغريبة ، وهى في غاية الاتساع ونهاية الإتقان ، والرخام كثير بها ، وأكثر أبواب ديارها معمول منه ، عضائد وعتباً ، وجل مبانها من حجر منحوت محكم العمل ، ولها أبواب عديدة ، وعند كل باب منها روض متسع على قدر البلد المستقل ، ولو اتفق أن يكون بها ماء جار لكانت معدومة النظير شرقاً وغرباً ، ولكن ماها قليل وفي ديارها مصانع الماء المطر .

وأما الساقية الجلوبة من ناحية (زغوان) فقد استأثر بها قصر السلطان وجنانه إلا رشحاً يسيراً سرب إلى سقاية جامع الزيتونة يترشف منها في أنابيب من رصاص ، ويستقى منها الغرباء ومن بيته ماء .

وجامع الزيتونة من أحسن الجوامع وأتقنها وأكثرها إشراقاً ، ودائرته مسقف ، ووسطه فضاء قد نصبت فيه أعمدة من خشب على قدر ارتفاع الجدر ، وشدت إليها حبال متينة في حلق من حديد مشبته فيها وفي السقوف شداً محكماً ، فإذا كان يوم الجمعة ونشرت عابها شقق الكتان المطبقة الموصولة حتى تظلل جميع الفضاء (الصحن) ذلك دأبهم فيها حتى ينصرم فصل الصيف » .

(من رحلة العبدري . سنة ٦٨٨ هـ) .

الحفصيين^(١)

وطال عهد الحفصيين ، واتسع سلطانهم ، وذاعت شهرتهم حتى بايعهم أهل مكة بإمارة المسلمين ، ولعل مرد ذلك إلى ضعف دولتي الخلافة في بغداد وفي الأندلس ! وفي عهدهم رقت البلاد وتقدمت حضارتها ، وأطمأنت حياة الناس فيها وعمتهم الرفاهية .

ولم يلبث الضعف أن أخذ سبيله إلى دولتهم شأنها في ذلك شأن الدول جميعاً ، وعُرف منهم ذلك ، فهم العثمانيون^(٢) بهم فسلكوا جنبات الصواب ، واستنجدوا بالإسبانيين ، فحفوا إلى نجدتهم مبيتين لهم الغدر ، إذ ما كادوا يستولون على ثغور البلاد بمساعدة حكامها المخدوعين حتى كشفوا عن نواياهم وتنكروا لهم ، وقسوا في معاملتهم ، ولقى سكان تونس من العسف والظلم والهون ما تندى له الجباه ، وتصفر منه الأنامل ، وتنفس الناس الصعداء عند ما جاء العثمانيون بجيش عظيم وأسطول قوى ، وطردهم الإسبانيين شر طرد ، وانقضى بطردهم عهد الحفصيين ، وبدأ عهد العثمانيين في تونس (سنة ٩٨١ هـ) .

وفي عهد العثمانيين أخرج الإسبانيون مسلمي الأندلس من ديارهم بعد

(١) الحفصيون فرع من الموحيدين ، وكان جدّهم الذي ينتسبون إليه من خالصاء الأمير عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحيدين .

(٢) كان العثمانيون قد استولوا على الجزائر وجعلوها ولاية عثمانية .

عسف واضطهاد دام طويلاً^(١) . فوفد كثير منهم إلى تونس فأكرمتم وفادتهم ، ووزعت عليهم الأراضي فعمروها ، وأنشأوا البساتين

(١) لقد استولوا على مدينة تونس « واستباحوها بالقتل والأسر والسبي حتى قيل إن عدد سكان تونس كان مائة وثمانين ألفاً ، قتل منه الثلث ، وأسر الثلث ، ونجا الثلث ، ومن أفظع ما ارتكبه عساكر الإسبان أن هجموا على جامع الزيتونة ، وبددوا ما كان يوجد به من نفائس المخطوطات في المكتبة(العبدلية) فأصبحت أثراً بعد عين . (تاريخ تونس لحسن حسين عبد الوهاب) .

لقد كانت وثيقة تسليم غرناطة تضمن احترام المسلمين في دينهم وأملاكهم وحرمتهم وأمنهم وسلامتهم والسماح بالهجرة لمن أراد الخروج إلى الديار الإسلامية ولكن تبعاً للمعصب الديني والحقد الجنسي ، واستجابة لتحريض الكنيسة ، خصوصاً مساعي الكردينال « كيمناس » لدى الملكة إيزابلا ، نقضت شروط الأمان التي منحت للمسلمين ، فبدأت الدعوة إلى تنصيرهم جبراً وتحريم إقامة شعائرتهم الدينية ، وإغلاق المساجد ، وعمد الكردينال كيمناس إلى الكتب الموجودة بغرناطة وأحرق منها مئات الآلاف ، ولم يبق منها إلا ثلثمائة كتاب في الطب ثم صدر قانون بإكراههم على ترك زيهم واتخاذ الزي الإسباني ، ومنعوا من الاغتسال ودخول الحمامات ، وحظر عليهم التكلم بالعربية ، كما أوجبوا عليهم استبدال أسماء إسبانية بأسمائهم العربية ثم حولت جميع المساجد إلى كنائس وتنصير من بقى على دينه من المسلمين ، أو أن يخرج من إسبانيا في مدة معينة . وكانت الكنيسة تحرض على الفتك بهم وعدم الاغترار بادعائهم النصرانية ثم صدر أمر النفي والجلد في ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ (١٠١٧ هـ) وحشدت لهم السفن من مختلف الجهات فذهب البعض إلى فرنسا وإيطاليا (شرط الاستمرار على الكتلثة) وذهب البعض الآخر إلى مصر والآستانة ، ولكن الأغلبية الساحقة منهم نقلوا إلى المغرب العربي خصوصاً المملكة التونسية .

وكان عدد الذين أصابهم النفي والجلد عظيماً جداً ، وأوصله بعضهم إلى عدة ملايين ، هلك منهم أثناء عملية النفي ما يفوق المائة ألف بين أسير وقتيل . وعلى هذه الصورة المرعبة انتهى

فيها ، وشيدوا القرى والمدن^(١) في شتى نواحيها ، وأدخلوا في البلاد صناعات جديدة^(٢) كانوا يزاولونها في فردوسهم المفقود .

وإن عداء مسيحي أوربة الجنوبية السافر للدول الإسلامية وتصريحهم بالشر ، وتضافرهم على الاستيلاء على جزائر البحر المتوسط التابعة لها ، وغزوهم لبعض سواحلها ، واقتحامهم لبعض ثغورها ، وقتلهم بعض سكانها ، وأسرههم لبعضهم الآخر ، ونهب ما في مدنها المغزوة من نفائس وذخائر ، إن ذلك الاعتداء المبيت الملح أشعر مسلمي شمالي أفريقيا تهديد دائم للمال والأرواح ، ولما هو أغلى من المال والأرواح ، ولتفتهم إلى سيف أوربة المصلت الذي لا يدرون متى يهوى على رقابهم ، فأتمروا ، وأجمعوا أمرهم على إعداد أساطيل بحرية مزودة بالرجال والعتاد

أمر المسلمين بالأندلس . وما جنت إسبانيا بعملها هذا ، على المسلمين فقط بل جنت على نفسها أيضاً أعظم جناية ، وفي ذلك يقول جوستاف ليين وبما يرى له أن حرمت إسبانيا عدداً هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية وقد كان من نتائج تلك المظالم أن هبطت إسبانيا إلى أسفل دركات الانحطاط ، بعد أن بلغت في أيام العرب قمة المجد ، وأن انهارك كل ما كان فيها من الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والآداب » (محمد العربي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب) .

(١) « من المدن التي شيدها سليمان قرنبالية والجديدة وزفوان وطبرية وبجاز الباب وتستور وقلعة الأندلس ، وقد استوطن بعضهم مدينة تونس في حارات عرفت بهم مثل حومة الأندلس ، وزقاق الأندلس » (تاريخ تونس لعبد الوهاب) .

(٢) « لقد أدخلوا صناعات النحاسية ، ونسج الحرير ، ونقش الرخام والجبس والجليز ، وتجليد الكتب وزخرفتها ، والحرف المثل ، وأقاموا لها مصانع خاصة » (تاريخ تونس لحسن عبد الوهاب) .

والسلاح ، لحمايتهم والذود عنهم وعن ثغورهم وتجارهم ، وتنتقم من المعتدين على بلادهم وعلى سفنهم التجارية كلما واتهم الفرصة ، جزاء وفاقاً لما فعلوا بهم ! والبادى أظلم !

ولقد قوى عزائمهم على هذا الانتقام ، ودفعهم إلى الغلو فيه مهاجرو الأندلس الذين طردوا من بلادهم وهم ألوف ، بعد أن عذبوا عذاباً لم يعذبه أحد ، وانتهكت حرمانهم ، وهتكت أعراضهم ، وسلبت أموالهم ، ومشاهدتهم المستضعفين من أهلهم الذين لا يطيقون هجر أوطانهم والفرار بدينهم ؛ يقسرون على اعتناق المسيحية^(١) !

لقد انضم أولئك المتورون إلى الغزاة ، وقلوبهم تغلى حقدآ ، وألسنتهم تمج صابآ وعلقماً ، فاستفروا وهاجموا السفن الأوربية ، واستولوا على ما فيها من بضائع ، وأسروا من فيها من تجار وسفار ، وغزوا السواحل

(١) يقول السيد محمد العروسي المطوي في كتابه : « الحروب الصليبية في الشرق

والغرب » :

« فإن الكثير من المهاجرين الأندلسيين كانوا عند ما يستقر بهم الأمر في المدن الأفريقية يعملون على الانتقام من الإسبان الذين أخرجوهم من ديارهم ، فيقومون بغارات منظمة على سواحل أقطار جنوبي أوربية وقد اكتسبت هذه الغارات صبغة الجهاد ، فكان يشاركهم في هذا كثير من سكان السواحل الأفريقية ، فيركبون السفن ، وينزلون بالسواحل الإسبانية لإيقاد إخوانهم من خطر الفناء والتنصير ، كما كانوا يغيرون على سفن النصارى من الإفرنج ، ويمدون بما فيها ومن فيها من غنائم وأسرى ، وتكونت بذلك قرصنة إسلامية ما كان يمرزها البهارة المسلمون في الماضي وإنما دعت إليها فكرة الجهاد والانتقام من الإسبان وغيرهم من معتدى مسيحي أوربية الجنوبية . »

والثغور الأوربية ، وأسروا كثيراً من نساءها وغلمانها ورجالها ، وعادوا بهم
وباعوهم بثمان غال ، والناس فيهم راغبون ، ونفقت بذلك تجارة الرقيق
الأبيض !

على أن الأتراك العثمانيين الذين جاءوا تونس ولاية أو جنداً أو موظفين
أو غير ذلك ، وأقاموا فيها ، لم ينأوا بأنفسهم عن أهلها، ويحتفظوا
بشخصيتهم الأجنبية ، كما يفعل المستعمرون الغربيون عادة في الأقطار
التي يحتلونها ، بل سارعوا إلى الاختلاط بهم ، والاندماج فيهم كشأنهم في
جميع الأقطار الإسلامية التي ضموها إلى دولتهم — دولة الخلافة .

٩

— واستمر حكم الأتراك العثمانيين في تونس بخيره وشره طويلاً ، وقام في
أثنائه البيت الحسنى بأعباء الدولة ، وكانت علاقته بدولة الخلافة أشبه
بعلاقة بيت محمد على بها ، وقام بعض باياته بإصلاحات واسعة النطاق
في جميع النواحي ، وأخذت تسير تونس في عهدهم بخطا واسعة في سبيل
الرقى والتقدم إلى أن منيت بالاحتلال الفرنسي^(١) .

احتلت فرنسا تونس ، كما احتلت بريطانيا مصر في ظروف متشابهة
وتدرعت كلتاها باضطراب حبل الأمور فيهما ، وكان ذلك في الحقيقة بسبب

(١) الدكتور الحبيب تمار: (هذه تونس ص ٢٣) .

الدسائس التي غزلت غزلها ، وحاكت نسجها أيديهما القذرة الأثيمة (١)
(سنة ١٨٨١ م في تونس ، وسنة ١٨٨٢ م في مصر) .

وأرغمت تونس على عقد معاهدة مع فرنسا تخول لها احتلال
المراكز التي تراها لازمة للمحافظة على النظام واستتباب الأمن في البلاد !
وتشترط في أحد بنودها أن يتولى سفراؤها ووزراؤها المفوضون وقناصلها في
الأقطار المختلفة تمثيل تونس ، ورعاية مصالح رعاياها فيها ، كما تحرم
عليها في بند آخر عدم إبرام أى عقد ذى صبغة عامة مع أية دولة أخرى
دون الرجوع إليها والحصول على موافقتها .

ولم تقنع فرنسا بما اغتصبت من حقوق فأرغمت الولى الشرعى وهو
الباى فى سنة ١٨٨٣ م أى بعد سنتين من احتلالها البلاد على إمضاء
اتفاقية تعرف باتفاقية المرسى ، وتنص أول مادة فيها على أن « حضرة الباى
المعظم ، لما كان قصده أن يسهل للحكومة الفرنسية لإتمام حمايتها ، تكفل
بإجراء الإصلاحات الإدارية والعدلية والمالية ، التي ترى الحكومة الفرنسية
فائدة من إدخالها » .

وبهذا أصبحت السلطة الفرنسية الحاكمة بأمرها ؛ فلم تألو جهداً في
توجيه كل مرفق من مرافق البلاد نحو تحقيق مصلحة فرنسا ، وتنفيذ

(١) لقد دبرت فرنسا قتل عدد من العمال الماطيين والإيطاليين والإسبانيين الذين كانت
تستخدمهم إدارة إحدى السكك الحديدية ، وتتهم رجال إحدى القبائل التونسية لقتلهم ،
لتنخذ هذا الاتهام مبرراً للقيام باحتلال الأراضى التونسية .

أغراضها ، وجعلت مصلحة البلاد وأهلها دبر أذنها وتحت أقدامها ، فبدأت بانتزاع الأراضي الخصبية من ملاكها الزراع التونسيين ، كما استولت على أراضي القبائل الكلية^(١) وأراضي الأوقاف^(٢) ، وأراضي الغابات^(٣) وقامت بتوزيعها على المستعمرين الفرنسيين بأثمان زهيدة ، مقسطة على آجال طويلة .

وتوالى اعتداءات فرنسا على أملاك التونسيين وأموالهم ، لم ترع في ذلك إلاّ ولا ذمة ولا شريعة ، ولا عرفاً ، وأبهتت كواهلهم بالضرائب ، وجبها بالعنف والقسوة والإعنات والتعذيب .

. ولم تكتف باغتصاب ثروة البلاد الزراعية من أهلها ، فاغتصبت ثروتها المعدنية ومنحتها لشركات فرنسية ، كما وقفت في سبيل تقدم الصناعة فيها ملتزمة المعاذير ، شأنها في ذلك شأن بريطانيا في مصر في عهد الاحتلال البغيض ، لتستولي على خاماتها ، ولتكون سوقاً لبضائعها ومنتجاتها الصناعية ، وعملت على القضاء على قوميتها العربية : فاستبدلت اللغة الفرنسية باللغة العربية في المدارس والمصالح الحكومية والدواوين ،

(١) الأراضي الكلية هي الأراضي التي تمتلكها القبائل مشاعاً بين أفرادها ، وكانت تبلغ مساحتها أربعة ملايين هكتار ، أي ربع مساحة تونس كلها .

(٢) هي أوقاف المسلمين على المساجد والمدارس وأوجه الخير والهبر الأخوي ، خاصة كانت أم عامة ، وكانت تبلغ مساحتها أربعة ملايين هكتار أي قدر مساحة الأراضي الكلية .

(٣) كانت تبلغ مساحة أراضي الغابات نحو مليون هكتار .

وبذلك قطعت الرباط الوثيق بين حاضرها وماضيها .

ولم تقف فرنسا عند هذا الحد من العدوان ، ولكنها أخذت ، وهي الدولة التي ادعى دعاة ثورتها الكبرى أنها موطن الحرية والإخاء والمساواة ، أخذت تحد من حريات التونسيين ، فكملت أفواههم ، وحددت مجارى أفعالهم^(١) ، وفرفت بينهم وبين المستعمرين الفرنسيين ، لا بل لم تسو بينهم وبين الجاليات الأوربية الأخرى في الحقوق والواجبات ، غير مقيمة في ذلك وزناً للمبادئ والقيم الإنسانية : ومن أمثلة ذلك أنها جعلت الوظائف العالية، ذات المرتبات الكبيرة، والامتيازات الكثيرة، وفقاً على الفرنسيين والمفرنسين. على حين قصرت التونسيين أصحاب البلاد على الوظائف الصغيرة ذات المرتبات الضئيلة ، وأصبحت بذلك نسبة ما يتقاضاه الموظفون الفرنسيون نحو ٩٦٪ من مجموع ميزانية موظفي الحكومة التونسية .

وكانت خاتمة سيئاتها لإغراء التونسيين بالتجنس بالجنسية الفرنسية حتى لا يجنحوا إلى الاستقلال ، وسلكت في بلوغ ذلك سبلا كثيرة كأن تمنح للمفرنسين امتيازات خاصة ، وتعطيهم منحاً محبوسة على

(١) وإليك إحدى حيثيات ميثاق المؤتمر الوطنى التونسى ، المتعقد في تونس في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٤٦ م « وحيث إن التونسيين قد حرموا في بلادهم من الحريات الأولية . وهي حريات التفكير والنشر والقول والاجتماع والتنقل » .

الفرنسيين وحدهم^(١) أو تشجعهم على الزواج من فرنسيات يعملن للوصول إلى هذه الغاية ، ومن المفارقات العجيبة أنها كانت لا تمنح هذه الامتيازات للأطفال الناتجين عن هذا الزواج المختلط إلا إذا سموا بأسماء فرنسية خالصة لا تمت إلى الأسماء الإسلامية العربية بصلة. ولعلها كانت ترمى إلى أن تنسيهم عربيتهم ودينهم .. وليت الأمر وقف عند هذا الحد، فقد فتحت باب التجنيس على مصراعيه «فمنحت الجنسية الفرنسية للعاطلين الإنجليز (كثلاً) والروس البيض والإسبان الجمهوريين، وحتى الإيطاليين^(٢) في العهد الأخير لإكثار عدد الرعايا الفرنسيين بالنسبة لعدد الأهالي التونسيين والقضاء بذلك على شخصية البلاد التونسية^(١) .

ولم يقيم الشعب التونسي الأبى طويلاً على الخسف والذل اللذين أرادتهما له فرنسا ، ولم يرض بالهوان والفقر اللذين رأى نفسه ينحدر إليهما

(١) « رأيت تونس من كل ألواناً وألواناً . لا بل لا تزال رواسب من كل ذلك موجودة حتى اليوم ، تونس . . . قاسى شعبها الذل والفقر والجهل . . . أصبح الشعب فيها جائعاً عارياً يتسول قوته ، ثم يأوى إلى المغاور والكهوف يتخذ منها بيوتاً . . . كل هذا ليعيش الاستعمار ولتعيش طائفة الاستعمار » (من وجوه الاستراتيجية الاستعمارية تونس) .

(٢) يقول الدكتور مؤنس في كتابه مصر ورسالتها : « لقد بذل الفرنسيون أقصى ما استطاعوا من الجهد لفصل تونس عن بقية أم الشرق الإسلامى ، ومصر أولها ، وفتحوا الباب على مصراعيه لمهاجرة الإيطاليين حتى كادت جاليتهم تكون خطراً على الكيان البشرى التونسي ، ولكن ذلك لم يغن عن الفرنسيين شيئاً ، واستمرت تونس شرقية الروح مصرية الطابع » (كثلاً) .

(١) ميشاق المؤتمر الوطنى التونسى المنعقد فى تونس فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٤٦ .

انحداراً شديداً ، فثار ثورة عارمة بذل فيها كل مرتخص ، وضحي بكل غال ! وبذلك نال استقلاله كما قدمنا وأصبحت « تونس دولة حرة مستقلة ذات سيادة : الإسلام دينها والعربية لغتها » (١) .

١٠

الشعب التونسي

مما تقدم نرى أن الشعب التونسي مكون من جماعات وعناصر جنسية مختلفة وفدت على تونس مهاجرة (٢) أو متاجرة (٣) ، أو جاءت إليها غازية (٤) أو لاجئة (٥) ، أو حلت بها فاتحة (٦) أو مستعمرة (٧) ، أو حملت إليها رقيقة مسيبة (٨) أو مخطوفة (٩) ، أو استقدمت إليها للانتفاع بفنها وخبرتها (١٠) . لقد جاءت إليها تلك الجماعات والعناصر في عصور

(١) من الخطاب الذي ألقاه رئيس حكومة تونس أمام المجلس التأسيسي في ١٧ أبريل

سنة ١٩٥٦ .

(٢) كالبربر . (٣) كالفينيقيين . (٤) كبنى هلال وسليم .

(٥) كالأندلسيين واليهود الذين كانوا بإسبانيا . (٦) كالمسلمين العرب .

(٧) كالرومان والبيزنطيين .

(٨) كسبايا الأوروبيين الذين كان يأسرهم قرصنة المسلمين .

(٩) كالرقيق الأسود الذين كان يخطفهم النخاسون ويبيعونهم في أسواق خاصة .

(١٠) كالصناع المصريين الذين جى بهم لتعليم التونسيين صناعة السفن .

وأوقات مختلفة، مدموغة طبائعها وصفاتها وخصائصها الجسمية والعقلية وتقاليدها وعاداتها بطابع بيئات أوطانهم السابقة ، متأثرة بعض التأثير بمزايا بيئات طرقهم الطويلة^(١) التي سلكوها للوصول إليها . ولما أناخوا بها اختلطوا بالعنصر أو العناصر التي سبقتهم ، وارتبطوا معها برباط الجوار والمصاهرة ، فأثروا فيها ، وتأثروا بها ، كما تأثروا ببيئة وطنهم الجديد ، وتفاعلت الخصائص العقلية والجسمية لتلك العناصر المختلفة بعضها ببعض وتكون منها مزيج جديد، فيه من مزاياها وصفاتها كلها ، ولكن في الوقت نفسه فيه مزايا وصفات جديدة لم تكن في إحداها .

على هذا النمط تكوّن في تونس شعب متميز عن الشعوب الأخرى ، يجري في عروق أبنائه دماء العناصر الممتزجة كلها، وبعض الميزات الجسمية والعقلية الخاصة بكل منها . على أن بعض تلك الجماعات نأت بنفسها عن الامتزاج بالجماعات الأخرى لأسباب دينية، كما فعل اليهود، الذين أدى تمسكهم بشعائهم الدينية، التي تحرم عليهم التزاوج مع أتباع الديانات الأخرى ، والذين حدث صفاتهم الشيوكية بكثير من أفراد الشعب التونسي إلى أن يربأوا بأنفسهم عن الامتزاج بهم ! أو لأسباب قومية، كما فعلت بعض قبائل من البربر كالطوارق وغيرهم ، الذين فضلوا أن يتركوا أرضهم الحصينة، ويهجروا أوطانهم العزيزة، على الخضوع للفاتحين، ولاذوا بالجبال وهضاب الصحراء الكبرى واتخذوها مستقراً لهم ومقاماً !

يهود تونس : لقد استوطن اليهود تونس من أقدم العصور ، فلقد جاءت أول جماعة منهم مع الفينيقيين أو في عهد القرطاجنيين على الأقل (١) ، ولقد لجأ إليها جماعة أخرى من اليهود في القرن الحادى عشر ، جاءوها من إسبانيا بعد أن عذبوا فيها ونكل بهم ، فرحبت بهم تونس كدأب الأقطار الإسلامية الأخرى مع اللاجئين والمستجيرين ، فزاد بهم عدد اليهود في تونس . ويختلف اليهود في تونس في دهم وشكلهم وملبسهم وحياتهم الاجتماعية بصفة عامة عن يهود الأقطار الأخرى ، وعن مواطنيهم التونسيين الذين يدينون بديانات أخرى ! ولعل مرد ذلك إلى عزلتهم وتمسكهم بما وجدوا عليه آباءهم من عادات وتقاليد وسلوك !

ويحافظ يهود تونس الذين يسكنون الريف على تأدية شعائر دينهم محافظة شديدة ، وما يروى في ذلك أن يهودياً أخذ دجاجة وسار بها على قدميه عشرة أميال إلى الحاخام (٢) ليدبجها له ، ولما كان الحاخام متغيباً في ذلك اليوم عن قريته عاد بها إلى بيته ، وظل يتردد على بيت الحاخام عدة أيام حتى رجع فقام بدبجها له !

غير أن اليهود في المدن التونسية لا يقيمون وزناً مثل هذه الشعائر الدينية ، فتراهم يرتادون المطاعم العامة ويأكلون اللحوم التي تقدم إليهم ، بما في ذلك

(١) قيل إن يونس عليه السلام عند ما التقمه الحوت كان على سفر إلى قرطاجنة .

(٢) الحاخام الرئيس الدينى لليهود وهو في مقام القس عند النصارى ، ومن شعائريهم الدينية قيام الحاخام بذبح العجول والخراف والمغزى والطيور ، ولا يأكل اليهود لحمًا من هذه الأصناف إلا إذا كان الحاخام قد ذبحه .

لحم الخنزير المحرم عليهم أكله ، ومع ذلك فإنهم أقل تسامحاً ، وأشد بغضاً للمسلمين والمسيحيين من يهود القرى ، الذين يتمسكون بشعائر دينهم ذلك التمسك الشديد الذى ضربنا له مثلاً .

وليهود تونس أولياء يزورون أضرحتهم ، ومن أشهرهم الحاخام سيمون ، وعلّة تقديسهم له اعتقادهم أنه ضحى بنفسه فداء لهم ، ويروون فى ذلك القصة التالية : لقد حل بهم وباء فأتك ، راح كثير منهم ضحيته ، وكان آخر من مات به ذلك الحاخام المقدس ، ولما لم يمت أحد بعده ، انتشرت إشاعة بينهم أنه خلا إلى ربه ، ودعا أن يجعله فداء لأهل ملته ، وأن الله استجاب له ففاضت روحه ، ورفع عنهم الوباء ، فصدقوا هذه الإشاعة وآمنوا بولايته ؛ فإذا ما حل يوم زيارته من كل سنة - وهو اليوم الذى فاضت روحه فيه - هرعوا إلى مقبرته ومعهم أطفالهم يحملون الأزهار والشموع ونوعاً خاصاً من البخور يصنعونه من الشحم والياسمين ، فيضعون الأزهار على قبره ، ويوقدون الشموع ويحرقون البخور فيه !

ويصدق اليهود لخرافات أصبحت عندهم فى منزلة العقائد الدينية ، ومن ذلك ما يرويه الكاتب هربرت فيثيان^(١) ، قال : إذ ذات مساء عند ما كنت فى جنوبي تونس رأيت أمة من اليهود يتزاحمون على بئر ، كل يحاول أن يلقى دلوه قبل جاره ليرفع الماء من البئر ، فعجبت ، وسألت أحدهم :
ما خطبكم ؟ !

قال : نحن معشر يهود نؤمن بأن كتائب من الملائكة مكلفون بحراسة الأرض والهواء والماء ، ولقد علمنا من الروايات الموروثة عن آباؤنا أن المكلفين منهم بحراسة هذا البئر يستبدل بهم غيرهم كل سنة مرة واحدة في مثل هذا اليوم ، ولكننا لانعرف الساعة المحددة لذلك ، حتى الحاخامات لا يدرونها ، ولكنهم يدرون أنها بين الساعة الثالثة والسادسة بعد ظهر هذا اليوم ! وبما أننا نعتقد أنه إذا شرب أحد من ماء البئر في أثناء هذه الفترة ، التي ترك فيها البئر من غير حراسة ، أصيب بمرض معدتنتقل عدواه إلى غيره ، ويعم الوباء فيبقى الناس جميعاً ، ولذلك نمتنع عن الاقتراب من البئر في أثناء هذه المدة ، وعند ما تنتهى يقبل الناس عليها عطاشاً يتدافعون بالمناكب . ومن المصادفات الغربية أن المسلمين التونسيين ، جيران هؤلاء اليهود ، الذين رويت هذه القصة عنهم ، يعتقدون اعتقاداً مشابهاً (١) ، وهو أنه في ليلة معلومة من كل سنة ، عند ما تدق الساعة مؤذنة بمنتصف الليل ، يستبدل حراس البحر الملح من الجن ، ولهذا يحول البحر الملح الأجاج عذباً فراتاً في أثناء المدة القصيرة ، التي يستغرقها استبدال أولئك الحراس بغيرهم ! وبما أنهم يعتقدون أن من يذوق ماء البحر في أثناء هذه الفترة تكتب له السعادة ، فإنهم يندفعون إلى الماء بعد أن يخلعوا ملابسهم ويعبون منه عباً .

ويحرص يهود تونس على الإكثار من النسل ابتغاء زيادة عددهم ، ولا يفتأ حاخاماتهم يذكرونهم بذلك ، ويشجعونهم على الزواج وإنجاب

(١) هربرت فيشيان : تونس .

الأطفال بالأقوال الماثورة وضرب الأمثال . ومن أمثالهم : مثل الذين لا يتزوجون ويحددون نسلهم كمثل الذي يقتل نفساً حرم الله قتلها !

وإن تعدد الزوجات مسموح به في الشريعة اليهودية^(١) ولكن يهود تونس على الرغم من حبهم لكثرة الذرية لا يتزوجون عادة بأكثر من واحدة ، إلا إذا كانت الزوجة الأولى عاقراً ، وفي هذه الحالة تطلق الزوجة الأولى عادة توفيراً في النفقة !

وزواج اليهودى من غير إسرائيلية غير مرغوب فيه ، لاعتقادهم أنه ينتج بناتاً ، وإلى وقت قريب كانت الزوجة اليهودية التي لا ولد لها إذا مات عنها زوجها ، حق لها شرعاً أن تتزوج أخاه إذا كان له أخ ! فإذا رفض ، جاز لها في شريعتهم أن تقاضيه وأن تخلع نعليه أمام الملائ وتقطعهما ، وفي ذلك مسبة الدهر وعار الأبد ! ولأجل أن تتجنب أسرة الزوج ذلك الإجراء ، يلجأ الزوج حين تحضره الوفاة إلى طلاق زوجته ؛ ومن المشاكل الكثيرة التي تنجم عادة عن كثرة أفراد الأسرة الواحدة صعوبة عولم والصرف عليهم ، ولكن يهود تونس يتغلبون على ذلك بتنشئة أطفالهم منذ نعومة أظفارهم على القيام بعول أنفسهم بشتى الطرق ، فإذا ما بلغ الفتى أو الفتاة ثلاث عشرة سنة عد مسئولاً عن نفسه ، ولا ينبغي له أن ينتظر عوناً أو مساعدة من أحد ، وكثيراً ما التقيت في تونس بفتيان إسرائيليين على

(١) لقد كان لداود عليه السلام ٩٩ زوجةً وولابته سليمان عليه السلام أكثر من

رأس أعمال ناجحة يصرفونها بحكمة ودراية ومهارة !

ويلى الإكتثار من النسل عندهم فى الأهمية - وقد يفوقه عند كثير منهم - جمع المال من شتى وجوهه ، والتمير له بعد اكتسابه ، ولقد ذهب بتفصيل ذلك كتب وقصص كثيرة ، وضربت الأمثال فى تضحية اليهودى بكل غال فى سبيل الحصول على المال .

والزوج اليهودى ملزم شرعاً بسد حاجات زوجته ، ومع ذلك فىنبغى لها فى عرفهم أن تعمل مهما كانت ثروة زوجها أو ثروتها الخاصة ! وإذا ما عادت الزوجة من عملها ، فرض عليها القيام بخدمة زوجها فى أثناء تناوله الطعام ، وبإعداد غرفة نومه والتي لا ينبغى أن يقوم أحد غيرها بذلك ! وإن أهم حادث فى تاريخ أية أسرة إسرائيلية هو حفل الزواج ! الذى قد يستمر ثلاثة أسابيع متوالية ، إذا كانت الأسرة ميسورة الحال !

فإذا ما تم الاتفاق على زواج فتى بفتاة ، قام الفتى قبل عقد الزواج بأسبوع بإرسال صرة للعروس المختارة تحوى ملابس مختلفة ، وحذاء (١) مزخرفاً ومجموعة من أدوات الزينة ، وفى يوم معلوم يذهب كل من العروس والعريس ، يحف بكل منهما ثلة من الأصدقاء والصدقات والأقارب والقربيات إلى الحمام العام ! فإذا ما رجعت العروس إلى بيت أهلها ، تسلمتها (الماشطة) فلطخت شعرها بزيت خاص ، نفوح منه رائحة تزكم

(١) يقصد ما يطلق عليه فى مصر شبشب .

الأنوف ، ثم أزال الشعر من أجزاء جسمها^(١) المختلفة ، باستعمال عجينة خاصة ، وتزجج لها حواجبها وتكحل عينيها بطبقة سميكة من الكحل ، وتصبغ أطراف يديها ورجليها بالحناء !

وفي يوم معلوم تقوم العروس بطهو دجاجة ، ثم تضعها في مكان خفي ، ويأتي العريس ومعه صحبه الأذنون ، فيقومون بتفتيش بيت العروس زقاً زقاً للثور عليها ، وإن عملية البحث عنها تضفي على أهل البيت والضيوف جواً من الغبطة والسعادة ولوناً من المرح والسرور ، ويعتقدون أن الذي يعثر على الدجاجة يكتب عليه الزواج في خلال عام !

ولا يعقد عقد الزواج في البيعة كما يفعل المسيحيون ، ولكنه يعقد في بيت الزوج ، واستعداداً لذلك يطلى سلم البيت بالجير الأبيض الناصع ، ثم ترسم في مكان ظاهر منه صورة يد كبيرة بدم ثور ، اتقاء العين والحسد. وفي بيت العروس يجتمع القريبات والصديقات ويشتركن في تزيينها وإلباسها أثوابها الحريرية الفاخرة وحليها من عقود براقا وأساور وخواتم من فضة .

ولقد عجب هربرت فيفيان حين رأى الرجال يشتركون مع النساء في إلباس العروس ملابسها من غير أن تشعر بنجس أو يبدو عليها حياء ، وعندما تنتهي العروس من زينتها تغادر بيت أهلها مبدية تمنعاً تمثلياً ، وتسير تحف بها النساء من أهلها وصاحباتها إلى بيت زوجها تتقدمهم مغنية مأجورة

(١) ويستثنى من ذلك شعر رأسها بالطبع .

تردد أغاني تعدد فيها محاسنها، فتجد عريسها في انتظارها في الفناء، وقد وضع في صدر الفناء عرش مغطى بغطاء مطرز بالذهب، وعند ما يهل موكب العروس يسارع الزوج إليها فيأخذ بيدها ويساعدها على الجلوس على العرش، فتجلس عليه متكلفة الوقار والحشمة! ويتقدم العريس منها ويكشف عن وجهها، مخافة أن تكون قد استبدل بها غيرها، ولا بدع فكثيراً ما يستبدل الأب أو الأخ أختاً قبيحة بأخت جميلة رآها العريس فرغب في زواجها لصفاتها التي أحبها فيها. فإذا كانت عروسه المختارة، تحسس أصابعها حذر أن يكون قد وضع حبيب لها خاتمه في يدها، إذ أن ذلك يعد في عرفهم عاراً لا يمحي!

وعند ما يضع العريس خاتمه في إصبعها يثير الأهل والأصحاب المدعوون ضجة وصخباً وزياطاً وضوضاء، يتخللها قرع على الطبول وترانيم دينية مزعجة.

وعند ما تسكن العاصفة، يلتقى على الزوجين غطاء خاص، رمزاً للرباط المقدس بينهما، ثم يؤتى بكأس كبيرة ملاءى بالخمير، ويقدم لكل من العروس والعريس والحاخام والمدعوين من أقارب وأصدقاء، فيأخذ كل منهم رشفة واحدة، ويحدث عادة هرج ومرج وتدافع ليأخذ كل رشفته قبل الآخر، وعند ما تفرغ الكأس، يضرب بها عرض الحائط، فيهجم الحاضرون على قطعها المتناثرة على الأرض ابتغاء الحصول على قطعة منها ليحتفظوا بها تذكيراً لهذه المناسبة السعيدة. ويعقب ذلك وليمة كبيرة تقدم فيها أنواع

كثيرة من الفطائر والحلوى والمشروبات ، ويوضع في وسط المائدة الرئيسية شمعة ضخمة صفراء اللون ! وتجلس العروس على رأسها متربعة على حشيات لينة وهي تنوء بالعقود والأحجية ، متصنعة الرزانة إذا رأيها حسبها دمية لا حراك بها !

ويعقب الوليمة حفلة ساهرة تستمر إلى ساعة متأخرة من الليل (١) !

وإذا مات يهودى تونسى سارع إلى بيته نفر من الحانوتية ، ويطلق عليهم فى تونس أصدقاء الله ، فيقومون بإعداد الجثة للدفن ، ويضعونها فى غرفة ويحيطون بها ويرتلون بعض آيات من التوراة ، وفى غرفة مجاورة تجتمع نساء الأسرة وصديقاتها يكون ويرددون ما تقوله نائحة مستأجرة بصوت مرتفع ! ثم تحمل الجثة إلى المقابر ويبعث حولها عدد من أصدقاء الله لحراسها مدة ثلاثة أيام سوياً !

ولليهود فى تونس أحياء خاصة بهم فى كل مدينة أو قرية ، بها حارات تبذ فى القدارة شرقى لندن وغتو فرانكفورت ، إذا زرتها شممت رائح كريمة تزكم الأنوف وتتقزز لها النفس ، وفى كل حانوت من حوانيتها وفى كل ركن من أركانها كتل من الذباب متكأ كثة على كومات من الأوساخ ! وإذا شاء لك جدك العائر أن تسلك حارة من حاراتها وجدتها تلتوى فى غير

(١) يعرض فيها عدة مسليات من غناء ورقص وألعاب حواة ، وتقليد أصوات الحيوانات والطيور المختلفة تتخللها قطع موسيقية .

مناسبة ولغير ما سبب ، ترى البيوت تبرز تارة وتراجع تارة أخرى كما يحلو لأصحابها أو يوحى لهم خيالهم المريض ، لا يراعون نظاماً أو دستوراً للبناء ، وعن اليمين وعن الشمال طرق مسدودة ومخازن مظلمة تنى عن أسرار مغلقة !

وإن الدخول إلى بيوت اليهود في تونس ليس محظوراً كما هو الحال في بيوت التونسيين المسلمين : فهي كلاً مباح ، ومن السهل الميسور على كل سائح متجول أن يؤذن له بدخول أى بيت يهودى يشاء !

فإذا دخلت وجدت فناء فسيحاً تحيط به الغرف عن اليمين وعن الشمال . وتتمكن كل أسرة غرفة من هذه الغرف ، علماً بأن عدد أفراد الأسر اليهودية كبير كما قدمنا ! وأثاث الغرفة وما فيها من فرش قليل ، ويتكون عادة من سرير كبير جداً يتسع لاثني عشر شخصاً ، وصندوق ضخم توضع فيه ثياب السبت القيمة الخاصة بأفراد الأسرة جميعاً ، وخوان غير مهذب له أرجل قصيرة ! وفي جانب من جوانب الغرفة موقد ويجواره قدور سوداء وأوان وصحاف قدرة ، ويفوح من البيت كله الروائح الكريهة التى تنبعث عادة من المجارى إذا انفجرت إحدى مواسيرها .

وعند ما تمهم بالخروج من البيت يخف نحوك أهل البيت جميعاً من الحاخام ذى اللحية الطويلة القدرة، إلى الأطفال الصغار نصف العراة ، ويحيطون بك من كل جانب ويلحفون فى طلب ما تجود به نفسك لقاء فرجتك عليهم واطلاعتك على حرمتهم ! وخير لك وأبقى للمالك

أن تعطيهم جميعاً قدرأً من المال ، يقوم الحاخام بتوزيعه عليهم .
 وخير يوم لزيارة الحى اليهودى فى أية مدينة هو يوم السبت ، لأن اليهود
 يقومون بتنظيف بيوتهم فى يوم الجمعة استعداداً لاستقبال السبت المحرم
 وفيه يلبسون أفخر ملابسهم وتبدى نساؤهم زينتهن ، وفى يوم السبت لا يقو
 اليهود - رجالاً ونساء - بأى عمل فلا يوقدون ناراً ولا يطهون طعاماً !
 ولا يشترط فى الحاخام أن يكون عالماً بالدين وبشعائره ! ولكن يكتف
 أن يكون ماهراً فى الذبح وفى الختان ، كما أن بيعهم لا تفرها عن البيوت
 العادية ، وكثيراً ما يسكن الحاخام وأسرته فى شطر منها ، ويؤج
 أجزاء منها حوانيت ومصارف صغيرة لاستبدال النقود وتسليفها ؛ وتشته
 عادة على فناء متسع يجتمع فيه الرجال وشرفة عالية للنساء ، ولم أر فى
 بيعة زرتها محاولة لتجميلها أو المحافظة على أناقها ونظافتها .

ولقد شبه أحد الرحالة الألمانين إحدى بيع يهود تونس بالمقهى
 (البرصة) فيها يتجول أفراد الطائفة ويجتمعون أزواجاً وجماعات ، يبعث
 بصوت عال الأحداث الحارية وأسعار السلع والبضائع ، ويتخلل حديث
 ومجادلتهم الضحكات العالية والنكات والملح المستظرفة ، لا يشعرون بقده
 المكان ، وقليل منهم من يتأثر بما يلقى فيها من عظات وكثيراً ما قاطع أ.
 الحاضرين واعظهم واحتدم الجدل بينهما (١) !
 وإذا بلغ الفتى اليهودى الثالثة عشرة عد بالغاً ، فيؤخذ إلى البيعة ليؤد

(١) هربرت فيفيان : تونس .

امتحاناً في قراءة التوراة ويناقش في الشعائر والعقائد اليهودية ؛ فإذا نجح فيها جاز له أن يلبس وشاحاً خاصاً على أكتافه في الأفعال الدينية وحق عليه أن يصوم صومهم ويصلي صلاتهم في أوقاتها !

وإن كثيراً من مسيحيي تونس يزعمون أن اليهود يخطفون أطفالهم ليشرّبوا دماءهم في بعض المناسبات الدينية ! وإن هذا الاعتقاد لشائع في كثير من الأقطار المسيحية منذ عدة قرون ! حتى ليصعب علينا أن ننفية نفيّاً باتّاً على الرغم من أنه تعوزه البراهين والقاطعة (١) .

(١) إن من يقرأ مقال الأستاذ يوسف إبراهيم يزبك المنشور في أسرار العالم تحت عنوان : وحشية اليهود في إحدى جرائمهم الملهيبة يصدق ما قيل وما يقال عن خطف بعض اليهود الأطفال لينبجهم كما تذبج الخراف ويستنزفون دماءهم ليعجنوا بها نوعاً خاصاً من الخبز يتناولونه في بعض مناسبات دينية !

قال الأستاذ الذي قدم لمقالة الأستاذ يوسف : « كانت أمهاتنا يخلرننا في طفولتنا من الدفوف من أحياء اليهود ، لأن هؤلاء في زعمهم يخطفون الأولاد الصغار ويضعونهم في ”سريز الشوك“ لينزف دمه فيعجنون به خبزهم المسمى « خبز الفطير » عملاً بطقوس مذهبهم . . . وكثيراً ما كنا نضحك لهذه الرواية ونسميها خرافة . . . غير أن وقائع القضية العجيبة التي يعرضها الأستاذ يوسف يزبك تبعث تلك الخرافة من جديد وتثير حولها كثيراً من الأسئلة المحيرة والشكوك المثيرة ! »

ونلخص القصة فيما يلي :

جاء الراهب توما إلى دمشق . . . واستوطنها . . . وكان يقوم بمعالجة المرضى مجاناً . . . حتى أحبه الدمشقيون على اختلاف مللهم . . . وما كان لينخطر بهال أحد أن هذا الراهب الطيب الأثر سيلقى حتفه مع خادمه في جناية مروعة تقشعر لهولها الأبدان . . . لقد افتقد الناس الراهب لغيبه عن الدير يومين . . . وبعد البحث والتحرى عرف أنه كان آخر عهد الناس به ذهابه إلى حارة اليهود . . . وحامت الشبهات حول حاخاين وأربعة يهود آخر . . .

ويبدأ اليهودى صلاته بأن يرفع التوراة إلى جيبته ويلمسها بها ! ثم يلف سيراً من الجلد حول ذراعه اليمنى عشر مرات ليمنع - في اعتقاده - سريان الأفكار الخبيثة إلى رأسه ليخلو الجو فيها للأفكار الحسنة التى تنشأ عنها الأعمال الصالحة !

ولا يزال اليهود فى تونس قلة ضئيلة^(١) على الرغم من أن من أهم أهدافهم التناسل وكثرة الولد إذ أن عددهم لا يزيد على ٧٠٩٧١ .

وبعد لى اعترف شاهد وكان حلاقاً يهودياً قال « بعد نصف ساعة من مغيب شمس الأربعاء بمث داود هرارى خادمه - وهو أحد المتهمين السبعة - يدعوفى من دكانى نذهبت إلى بيته ووجدت عنده هارون وإسحق ويوسف هرارى ويوسف لينادى والهاخام أبو العافية والهاخام بيخار يهودا والراهب توما مربوطاً . ولما دخلت قال لى داود وأخوه هرون : قم اذبح الراهب فأجبتهما لا أقدر فقلا لى إصبر ، ثم جاءوا بسكين فبتقدمت وطلحت الراهب أرضاً وأمسكنا به جميعاً ووضعنا رقبته على طشت كبير وأخذ داود السكين وذبحه ، وكل عليه هارون وأخذوا دمه بالطشت ، وما تركوا نقطة تسقط خارجه - ثم حرقت ثيابه وقطع جسمه إربا إربا وكسرت رأسه وعظامه بيد الهاون ؟ ورميت جثته فى البحر ، واعترف آخر بأن دمه أخذ ليخلط به عجين الفطير - ثم اعترفوا جميعاً بالجريمة الشنعاء ، وما قالوه فى اعترافاتهم ! إن الهاخامين السالونيكلى وأبا العافية هما اللذان استدرجا توما الراهب إلى المنزل الذى قتل فيه وخذعاه بقوهم إن فيه ولدا يريدان تلقينه ضد الجدرى فصدق الراهب المسكين ودخل ليقوم بواجبه الإنسانى ولم يخرج - لقد ذبحه زبانية البشر ذبح الخراف ! فيما لوحشية معشر يهود !

(١) لقد هاجر عدد كبير منهم إلى مصر فى عهود مختلفة ، وفى أول عهد الموحدين بخاصة « ومن الطريف أن عدداً كثيراً من الجالية اليهودية فى مصر أصلهم من يهود تونس هاجروا إليها وتمصروا » (حسين مؤنس : مصر ورسالتها) .

قبائل البربر الخليلص :

لقد ذكرنا أن البربر سكنوا آخر الأمر في ظل العرب الفاتحين إلى الدعة وطفقوا ينتحلون صفاتهم وعاداتهم ، ويأخذون بمذاهبهم في السلوك ، ويتشبهون بهم في الملبس والمركب والسلاح ، ويرتبطون معهم بالمصاهرة والمصالح المشتركة ، وسرعان ما تناسوا نعتهم الوطنية وعزيمتهم القومية واندمجوا في العرب اندماجاً حمل بعضهم على انتحال نسب عربي وإذاعته بين الناس - شأن كثير من المسلمين غير العرب في الأقطار الإسلامية المختلفة - لما يرجونه من المنزلة عندهم !

ولكن شد عن ذلك بعض القبائل ذات العصبية القوية التي على الرغم من اعتناقها الإسلام ، وغلوها وإغراقها فيه ، واستبدالها اللغة العربية - لغة القرآن - بلغتها البربرية ، فإنها أنفت أن تؤدي المغارم للفاتحين وبرمت بما لقيته من بعض الولاة كعبد الله بن الجحباب من الظلم والفساد^(١) وانتبذت بنفسها مكاناً قصيماً حصيناً بين هضاب وجبال صعبة المرتقى ، وعرة المنحدر ، وعتة المسالك ، وهناك وجدت الحرية واطمئنان النفس وراحتها ، فاستقرت حيث شاءت ، ولا تزال حيث هي ، تحافظ على بعض ما وجدت عليه آباؤها من تقاليد وعادات ، وما فتئت تتبع نظام الأسرة « فتكون من مجموع الأسر التي يتحد أصلها وحدة اسمها الحروبة

(١) ابن خلدون .

تخضع لسلطة كبيرها الذى يشرف على حفظ النظام وفض المشاكل العائلية والقضايا المدنية ، ويرجع إليه أمر الزواج والطلاق ، ويقوم بإكرام الزائرين والضيوف ، ويسير الأمور الفلاحية ويوزع أعباءها على أفراد خروبتة .

ومن مجموع الحروبات تؤلف القبيلة مجتمعة حول ذكرى جد أعلى . وتعنى القبائل أكبر عناية بموضوع الحرمة أى احترام الجوار لأرض القبيلة أو القرية وشرفها ، وبتحالف القبيلة مع القبائل الأخرى للهجوم أو الدفاع أو تبادل المصالح .

ولهذه القبائل البربرية مجالس عرفية هى مجالس الجماعة، يجتمع فى كل منها رؤساء الحروبات والمشايخ والأعيان ويلقبون بالضمان . ويختص المجلس بالنظر فى قضايا الجنايات والجرح وفى الشئون السياسية والمالية ، ويقوم بعمارة المساجد والمحافظة على المقابر وتوزيع مياه الرى وإضافة رجال السلطة . ويجب أن تصدر قرارات المجلس بإجماع الآراء ، فإن لم ينعقد الإجماع على رأى ، تأجل صدور القرار إلى وقت ملائم آخر ، أو جرى تحكيم أجنب عن المجلس فى موضوع الخلاف ، ويكون قوهم هو الفصل ، وللمجلس رئيس ينفذ قرارات الجماعة ويسهر على الأمن واحترام الأخلاق » (١) .

(١) الكاتب المصرى : ص ٣٣ - ص ٣٥ بلاد المغرب : لعبد الله عنان .

الطوارق :



طارق بلشامه

ومن أشهر قبائل البربر وأذيعها
صيتاً ، وأبعدها همة وأشدها شكيمة
الطوارق ، ويسميهم البعض توارك ،
ويزعمون أن علة هذا الاسم أنهم
— كغيرهم من قبائل البربر — سكنوا
إلى الإسلام حين جاءهم به العرب
المسلمون ؛ ولكنهم سرعان ما تبينوا
أن الولاة والحكام يفرقون بينهم وبين
العرب الوافدين ^(١) ، وأن الأخيرين

يعلون عليهم علواً كبيراً فنارت نائرتهم وأخذتهم العزة بالإثم فتركوا بلادهم
وتركوا دينهم ، وسبوا لذلك توارك ، ولما خلوا إلى أنفسهم وثابوا إلى رشدهم
وأتمروا بينهم فرقوا بين العرب والإسلام فرجعوا إلى الإسلام أشد استمساكاً
به وغلواً فيه ، وظلوا يعتزلون العرب ، ويناصبونهم العداء ، ويتربصون بهم
الدوائر .

والطارق وسيم فارغ الطول ، عريض الأكتاف ، نحيف القوام

(١) وكان لدعوة الخوارج الذين وفدوا على المغرب من الشرق أثر كبير في إيجاد عصبية
بربرية ضد العصبية العربية . ابن خلدون .

مهيب الطلعة ، جليل المظهر ، تشع من عينيه السوداوين اللامعتين حيوية وقوة وشراسة ، وقل أن تجد بينهم البدين الضخم ! وصفهم رحالة غربي قال : . . . وفي الحملة إنهم صورة حية لخيالنا في صبانا عن العمالقة والمردة الذين يرد ذكرهم في القصص الخرافية والأساطير ! وقال آخر : (إنهم صنف بديع من البشر) وقال آخر : . . . يبدو الطوارق في شملتهم البيضاء ونقايمهم الأزرق كأنهم مخلوقات خيالية تختفي خلف دروعها ، ترى الواحد منهم في أثناء مشيته أشبه برصاصة منطلقة ! وقال آخر : وقد آثرت أن أنقل قوله بلغته :

“Their haughty demeanour and majestic bearing and picturesque equipment do make them look like the survivors of some high and mighty lords of the past”.

ويلبس رجال الطوارق لثاماً أسود أو أزرق أو أبيض^(١) لا يخلعونه في حلهم أو ترحالهم ، في يقظتهم أو نومهم ، حتى في أثناء تناوهم الطعام^(٢) ويصبغ بعضهم ما يظهر من وجوههم في أعلى اللثام بأصباغ مختلفة الألوان تلقى الرعب والخوف في قلوب من يراهم أو يلقاهم في السلم وفي الحرب ! ولقد ذهب الباحثون مذاهب شتى في أصل اللثام وسبب لبسهم له :

(١) يلبس نبلاء الطوارق ألثة سوداء أو زرقاء ، ويلبس مواليهم ألثة بيضاء .

(٢) النقاب (نقاب الطوارق) رائع بلونه الأزرق المصبوغ بمادة النيلية ، وهي صبغة غير ثابتة تترك آثاراً على الجلد مثل ورق الكريون ، ولذا تبدو بشرتهم كأنها مصبوغة بلون أزرق ، وهم يستخدمون فضلاً عن ذلك مادة زرقاء يكحلون بها جفونهم . (المختار مارس سنة ١٩٥٧ مع قبائل الطوارق حيث يلبس الرجال الحجاب) .

فيرى بعضهم أنه نوع من عدد التخفى كالأقنعة التي يضعها رجال العصابات وللصوص على وجوههم ليخفى أمرهم على من يراهم! (١)

ويرى البعض أنهم اتخذوه واقياً من الرمال السافية والرياح العاصفة في أثناء اختراقهم الصحراء ، ثم صار عادة لازمة لهم ! ويرى آخرون أن الطوارق توارثوه عن أجدادهم الذين اتخذوه في عهد غلبة أهل السودان على الصحراء الكبرى ليحسبهم من يراهم على بعد أنهم سودان فلا يتعرض لهم بأذى أو يمسهم بسوء ! ويرى بعضهم أنه من شعائر ديانتهم القديمة السابقة للإسلام ! على حين يرى صاحب كتاب تاريخ السودان أن الطوارق حميريون ولما كانوا في اليمن ظهر أحدهم بدين جديد فتهمهم ، فاضطهدوا وقتلوا وأخذت عليهم مهاربهم ، فتلثموا كالنساء كى يفلتوا من الحصار المضروب حولهم وتمكنوا بذلك من الفرار إلى شمالي أفريقيا واختلطوا بالبربر ، فتبربرت ألسنتهم ولم يخلعوا اللثام لتعودهم عليه (٢) ويرى جوتييه أنهم يلبسونه ليحولوا دون اتصال الأرواح الشريرة بنفوسهم عن طريق الفم أو الأنف (٣) .

على أن الطارق نفسه إذا سألته عن أصل اللثام الذي لا يفارقه أبداً ،

(١) ولم نر أبداً وجه رجل من الطوارق ، فهم يخنون وجوههم دائماً حتى في أثناء الطعام والشراب فيتناولون طعامهم من تحت النقب . (نفس المصدر السابق) .

(٢) عبد الرحمن بن عبد الله السعدى : تاريخ السودان الجزء الأول ص ٢٥ - ٢٦

(٣) جوتييه : الصحراء !

رد عليك بأنه لا يعرف عنه شيئاً .

ولا يلبس صبية الطوارق اللثام ، فإذا ما بلغوا الخامسة عشرة أقيم لهم حفل خاص لارتدائه !

ومن المتناقضات المستغربة أن نساء الطوارق لا يلبسن اللثام كما كان النساء المسلمات الأخريات في المغرب والمشرق يلبسنه حتى وقت قريب ، فهن يغدون سافرات ، ويرحن سافرات ، ويحضرن مجالس الرجال سافرات ، ويدلبن بأرأتهن من غير استحياء ولا حرج ، ويبدن زينتهن للأقرب والأبعد على السواء !

وفي الجملة فإن حرية المرأة الطارقية لا يحدها حد ، ومع ذلك فإنها لاتنسى وقارها أبداً ، إذا رأيتها رأيت الأدب اللحم والحشمة والرزانة والجلال . والطارقية طويلة ممشوقة القد ، نحيفة القوام ، جميلة العينين صغيرة اليدين والقدمين ! قال رحالة يصفها وصف من رأى « لم أر في حياتي أبداً أجمل من يدها وأرق من قدمها ، ولا أجمل من عينيها ، مشيتها كلها تيه وزهو وعجب ودلال ! تذكرني بإلهات الإغريق اللأئي خلد ذكرهن شعراؤهم ومثالوهم ! وإن المثل العربي : أرقش من غزال لينطبق على الفتاة الطارقية تمام الانطباق ، كأنما ضارب المثل كان ينظر إليها وهو يضربه ! وإن أنسى لا أنسى ابتسامتها الحلوة الوضاعة وضحكها المليئة الرنانة ! »

وملابس الطارقيات بسيطة ، وهن لا يملن إلى الألوان الزاهية البراقة ولا يلبسن من الحلى إلا القليل !



طارقية

وليس بمحظور على الفتاة الطارقية أن تحب وتهوى ، ولا جناح عليها إذا بثت حبيبها وجدها وغرامها ، أو طارحته أشعار الغزل ، وكثيراً ما تركب الفتاة الطارقية المحبة مطيتها ، وتسير مسافة طويلة لتزور الحبيب الذي بعد مزاره وقد لا ترجع إلى حلتها قبل مطلع الفجر !

وإن من الأوضاع المقلوبة عند الطوارق أن تتقدم الفتاة لخطبة الفتى على عكس المألوف عند الناس جميعاً !

ولقد كان الطارقي قبل اعتناقه الإسلام وأخذَه بفضائله ، لا يرى غضاضة في تقديم زوجته للضيف العزيز مبالغاً في إكرامه ، وكان إذا رفض ذلك الضيف ذلك التكريم الممقوت غضب غضباً شديداً ، وعد ذلك إهانة لزوجته وطعناً في محاسنها ! ولكن تلك العادة القبيحة زالت (١) بعد اعتناقه الإسلام ، ومن عادات بعض الطوارق أنهم إذا أرادوا أن يتكهنوا بالمستقبل باتوا على قبور أسلافهم فيرون في رؤياهم ما يعتقدون أنه ما سيكون !

(١) هذه العادة شائعة حتى الآن عند كثير من قبائل جنوب السودان وفي بعض أنحاء الحيشة .

وكذلك تفعل الفتيات المحبات لترى في أحلامها أطيايف المحبين الذين يكونون على سفر يغزون أو يتجرون !

ويلبس رجال الطوارق أثواباً فضفاضة معظمها من قطن كانوا^(١) المصبغ ، ويميلون إلى اللونين الأزرق والأسود ، ويكثرون من لبس الأحذية اعتقاداً منهم أنها تجلب لهم الحظ السعيد وتقيهم الشر وتمنع عنهم الحسد ! والطارق كريمة يقربى الضيف ، وهو بوجه عام رزين كتوم ولكنه في مجالس مرحهم يميل مع رفاقه لسماع الفكاهات والطرائف والملح والنوادر ويستجيبون لها وينعمون بها فيضحكون من أعماق قلوبهم ، يضحكون كثيراً وطويلاً !

ولكنهم مع ذلك محبون للانتقام ويحرصون على الأخذ بالثأر ! ومن ذلك ما يروى أن طارقياً تغيب عن حلتة مع رجالها فأغار عليها بعض الأعداء فقتلوا - ممن قتلوا - ولديه ، وسبوا زوجته ، فظل سنين عديدة يبحث عن قتل ولديه وسبى زوجته حتى عرفه ، فأخذ يطلبه ولم يتطرق إليه اليأس حتى عثر عليه ، فأمسك به وجره فوق الرمال إلى حيث دفنه حياً إلى كتفيه بجوار قرية للنمل . . . وجاء إليه في الصباح فلم يجد منه إلا جمجمة فارغة ، لم تبق التال للذر فيها نصيباً !

والطوارق شعراء بطبيعتهم ، ونساؤهم بخاصة ، وهم كعرب الجاهلية يقيمون أسواقاً أدبية يلتقى فيها الشعراء ، رجالاً ونساءً ، قصائدهم الجديدة ،

(١) كانو : مدينة من مدن نيجيريا .

وينشدون ملاحم تاريخية يشيدون فيها بأفعال أبطالهم وبطلاتهم السابقين في حروبهم وغاراتهم ، ويقصون أساطيرهم منظومة ، ويتبارون في إجادة الحوار وسرعة البديهة ، وكثيراً ما تتصدى امرأة شاعرة لفحول الشعراء من الرجال وتتغلب عليهم !

ويسافر الشعراء ونبلاء الطوارق مئات الأميال لحضور إحدى هذه الأسواق الأدبية !

وتنعقد هذه الأسواق أو المحافل الأدبية في الليل والقمر بدر. وعلى الرغم من أن موسيقى الطوارق بدائية قليلة النغمات ؟ ، فإنهم يعشقونها ويحرصون على سماعها أما أغانيهم فأراجيز حماسية تقص أمجادهم فتثيرهم وتذكى نخوتهم !

ويحمل الطارق البالغ سيفاً كبيراً مستقيماً غير مدبب الطرف ، وخنجر يد ، ويمسك رمحاً أو حربة ، ويتنكب ترساً طويلاً ضخماً مصنوعاً من جلود الظباء أو الوعول ، وبدأوا يستعملون القذافات !

وينقسم الطوارق ثلاث فئات متفاوتة مختلفة درجاتها في شرف المحتد والمرتبة الاجتماعية ، ولا تتزوج فئة من فئة أخرى إلا نادراً^(١)

١ - النبلاء أو الأشراف : وهم القواد في الحروب والغزوات والزعماء

(١) إذا تزوج رجل من الموالى من امرأة من الأشراف أو النبلاء - وهو أمر لا يحدث إلا نادراً أصبح أطفالها من النبلاء ، أما إذا تزوج رجل من النبلاء امرأة من الموالى فإن أطفالها لا يصبحون نبلاء !



في زمن السلم ، ولذا فهم
الذين يضعون خطط
الغزوات والحروب وسير
القوافل ، ومن النبلاء
يختار (الأمينوكال) أو
سلطان الطوارق جميعاً ،

والذي يقوم باختياره ثلاثة رجال من الطوارق على ظهور الإبل ، ويحملون دروعهم
نساؤهم ، وليس ذلك بعجيب لأن الطوارق يخضعون للنظام الأموي^(١)
الذي يجمع مقاليد الأمور في يد الأم ، وكان لذلك أهل الأم هم أصحاب
السلطة والزعامة والحال رئيس الأسرة لا الأب .

٢ - الموالي : ويتبع كل قبيل منهم قبيلة من النبلاء يدينون لهم بالولاء ،
ويلوذون بحماهم ، ويمدونهم بالرجال في الحروب والغزوات ، ويؤدون لهم
الجزية !

وللأشراف الحق أن ينزلوا على مواليهم فيقوم الموالي بتقديم كل ما يلزم
من طعام لهم ولأهلهم ولأتباعهم ، ومن علف لحيلهم وجمالهم^(٢)

(١) من الغريب أن الطوارق يجرمون على أنفسهم أكل الورد والسحلية الكبيرة وذلك
لاعتقادهم أنها من خولتهم : جوتييه : الصحراء ص ١٨٢ .

(٢) لاحظ الذين عاشروا نبلاء الطوارق أنهم لا يستغلون حقهم على الموالي في الضيافة
إلا نادراً .

٣ - الخدم : ويقومون بمعظم الأعمال اليدوية فينظفون البيت ويطهون

الطعام ويخبزون الخبز ويخيطون الملابس ويغسلونها ويزرعون ويرعون !

والأشراف والموالى كلاهما من الجنس الذي يطلق عليه الجغرافيون

القوقازي ويكاد لا تفرق بينهم في اللمحات ! أما الخدم فن الزوج !

ويمجد الطوارق وبخاصة نبلاؤهم الشجاعة والفروسية !

ويقيمون لذلك حلبات يتبارى فيها فرسانهم بالسيوف والتروس !

وإن كلفهم بإقامة هذه الحلبات ورسمهم علامة الصليب على تروسهم

جعلت بعض كتاب الغرب ورحالهم يزعمون أنهم من سلالة الصليبيين

أتباع سان لوى ملك فرنسا ، الذى قاد آخر حرب صليبية ، محاولا غزوتونس ،

فلقى حتفه بعد نزوله على سواحلها في أطلال قرطاجنة .

* * *

وفي تونس جماعة من السكان تعرفهم من لونهم الأسود ، وهم في

الأصل من أفريقية السوداء ، سباهم النحاسون ، وحملوهم إلى تونس

وباعوهم في أسواق الرقيق بها عبيداً ، وإن فك رقابهم لم تكن له النتائج

الخطيرة المؤلمة التى خلقها عتق العبيد في الولايات المتحدة الأمريكية ،

والتي لا تزال آثارها السيئة قائمة في حياتهم الاجتماعية ، وحزازاتها تجثم

على صدورهم وترين على قلوبهم ! ذلك لأن الدين الإسلامى يسوّى بين

الأمير والسوقة ، وبين العبد والسيد ما دام يجمعهم الإسلام « لأن المسلم

أنحو المسلم ، والناس سواسية كأسنان المشط (١) « فلا تفاضل ولا تفرقة بين العناصر إلا بالإحسان والتقوى ! وإنك إذا رأيتهم لا ترى فيهم ما يدل على مهانة أو ذلة أو صغر همة أو خنوع ، ولكنك ترى فيهم الإحساس بالعزة والكرامة والاعتداد بالنفس والاطمئنان ، والشعور بالثقة في المستقبل بادية على وجوههم : كتب عنهم صاحب كتاب تونس قال : « إنهم أكثر سكان تونس ظرفاً ودغابة ، إذا رأيتهم رأيت وجوههم تنضح بالبشر ، والابتسامة لا تفارق شفاههم ، لا يعكروم مزاجهم معكروم ، ولا يثيروهم أمر مهما جل وعظم لا ينشون لذعرا ! ولا يقيمون . في أحياء خاصة بهم كما يفعل اليهود ، ولا يلبسون ملابس تميزهم عن سواهم ، غير أنهم ينفرون من ارتداء الملابس السوداء ، لأنهم يتطيرون من كل شيء فيه سواد ، وجلهم يحترفون بياض الدور بطريقة الرش » (٢) .

وفي تونس جاليات أجنبية كثيرة أهمها الجالياتان الفرنسية (٣) والإيطالية (٤) ولكل جالية من هذه الجاليات حيها الخاص في المدن التونسية الكبيرة ، وإنك إذا زرت حياً إيطالياً خيل إليك مما تسمع وترى أنك في بلد إيطالي في قلب إيطاليا نفسها ، كذلك إذا مررت بحي فرنسي

(١) من قول لعمر بن الخطاب بلجلة بن الأيهم .

(٢) هريرت فيفيان : تونس .

(٣) كان في تونس قبل إعلان استقلالها نحو ثمانين ألفاً من الفرنسيين المستوطنين ،

فترك البلاد منهم نحو نصفهم ، ولا يزالون يهجرونها !

(٤) كانت أكبر الجاليات عدداً قبل احتلال فرنسا لتونس الجالياتان الإيطالية والمالطية .

شعرت كأنك في أحد أحياء باريس .

وإن بين الفرنسيين والإيطاليين المستوطنين في تونس عداوة متأصلة وبغضاً مريراً متبادلاً لتنافس دولتيهما في الماضي على احتلال تونس ، وكان الإيطاليون يعتقدون أنهم أولى من فرنسا في استعمارها كأنما خلق الله الشعوب الأفريقية لتكون لأحدهما أو كليهما أو لغيرهما من الدول الأوروبية عبيداً وخولا !

لقد أخذ التونسي من البربر بياض بشرته^(١) ، ومن القرطاجيين حبه للحرية ، ومن العرب نبل مظهره^(٢) ، ومن الترك استعلاءه ، ومن الفرنسيين طراوته . وهو ، بوجه عام ، مهذب ، مهيب الطلعة ، صبور^(٣) ، سمح ، كريم ، يرحب بالضيف ، ويكرم وفادته . والتونسي يعتد بنفسه ، ويعتز بعروبته ، ولكن اعتداده بنفسه الذي يغالى فيه أحياناً حتى يشرف على هوة الغرور المردى ، كثيراً ما يزحزحه عن سجيته

(١) أخذ بعض التونسيين فوق بياض البشرة زرقة العيون واصفرار الشعر .

(٢) كتب هربرت فيفيان يصف سكان تونس ويسمهم في كتابه تونس العرب ، قال : كل شيء من العرب يؤكد نبل نفوسهم والعظمة والجلال اللذين يتجليان عليهم وهم يسرون حفاة بما عليهم من أسمال بالية أو في ثياب الوشى المنسوج بالذهب والفضة وعليهم العبايات من القصب !

(٣) وكتب أيضاً في تونس : الإنسان والحيوان يحملان فوق طاقتهما ، لقد رأيت حمالاً تونسياً يحمل سبعة كراسي وأريكة ومنضدة كبيرة ولوحيتين كبيرتين من الخشب كلها موضوعة على كتفه وضماً منظماً .

فيورطه في اتباع ما يتعارض مع الصالح العام للعروبة التي يتمسك بها ويفخر!

واللهجة التونسية أوضح اللهجات المغربية للسامع العربي وأقربها إلى اللهجة المصرية^(١).

والتونسيون ثلاثة أقسام يختلفون اختلافاً بيناً في اللهجات والمظهر العام والملبس!

١ - سكان مدينة تونس والسهول الساحلية .

٢ - سكان البقاع الداخلية .

٣ - سكان الواحات .

١ - القسم الأول : ويكثر فيهم دم السكان الأولين كالبربر

والفينيقيين ؛ ويغلب على لمحات كثير منهم مخايل السبايا الأوربيين وأسراهم ، وإنك لتجد في ألقاب كثير من الأسر ما يشير إلى الموطن الأصلي

لأجدادها كالفرنساوي والإنجليزي والجنوي والملطي وكريستو!

وجل رجال هذا القسم يلبسون الزي الأوربي ، والذين لا يلبسونه منهم

يرتدون جبة يطلق عليها (البلوزة) وهي مفتوحة من أعلى على شكل ٧ ثم

تبدأ الزراير من الوسط حتى طرفها الأسفل ، ولها فتحتان للذراعين ، ولها

أربعة جيوب : اثنان في الصدر واثنان في الجانبيين ، وتعمل في الصيف

من الحرير أو القطن ، وفي الشتاء من الصوف الخفيف الأحمر ، وقد

(١) انظر دكتور حسين مؤنس : المغرب .



فتى تونسي وفتاة تونسية

يكون مخططاً بخطوط حمراء
أو سمراء .

وتختلف الجبة (البلوزة)
طولاً ولوناً باختلاف
الجهات (١) .

ويلبسون تحت
(البلوزة) سراويل بيضاً أو
سمراً لها حجور واسعة
وتمسك في أسفلها بالساق!
ويلتحفون بملفحة كبيرة على
الطريقة الرومانية، ويضعون
على رؤوسهم الشاشيه
(الطربوش) .

أما النساء فقد أصبح معظمهن يرتدين الزي الأوربي ، وأما
المحافظات منهن فلا زلن يلبسن سراويل من القطن أو الوشي المنسوج بالذهب
أو الفضة ، وفوطة (٢) وحصارة (٣) قصيرة لا تصل إلى أوساطهن

(١) إن سكان مدينة تونس يعرفون مواطن التونسيين الآخرين الذين يفدون عليهم من

ملايسهم .

(٢) ما يطلق عليها في مصر جونلة .

(٣) ما يطلق عليها في مصر كازاكا .

وماريولا^(١) ، ويلبسن فوق ذلك كله السفسارى وهى ملاءة بيضاء تلتف بها المرأة من قمة رأسها إلى أخمص قدمها ، وتضع على رأسها النقريطة ، وعلى وجهها الحجاب ، وهو قطعة من الصوف البنى أو الأسود ، وهو يشبه البرقع المصرى القديم .:

ويكثر النساء من التزين بالحلى فيلبسن الخواتم والحلقان والأساور والحجول .

ويسكن هؤلاء الدور على اختلاف طرزها .

٢ - سكان البقاع الداخلية :

يغلب على هذا القسم الدم العربى والبربرى ، ويوجد لذلك بينهم الأبيض والأسمر ، ولقد دهش الرحالة هربرت فيثيان من بياض بشرة بعضهم ولقد كتب عنهم فى كتابه تونس « إن لون بشرة أشدهم سمرة كلون بشرة الإيطاليين والإسبانيين ، وإنك لتجد كثيراً بينهم من يعدون فى إنجلترا نفسها شُقرأ ! » .

ويسكن هؤلاء فى بيوت ريفية جميلة أو فى خيام متسعة عالية ، ويتخذ بعضهم من جذوع الأشجار وفروعها زرابياً يكسونها بالقش ، ويطلق عليها (جوربى) وتحفر أرضها عادة نحو نصف متر ! ويلبس رجالهم برانس فوق جلابيب من القطن ، ويلبسون على

(١) هو القميص الداخلى : الشمار .

رعوسهم طرايش حمراء بدون زر تسمى المطروزة يلف حولها عمائم بيضاء أو مطرزة بلون أصفر ، ويضعون فوق المطروزة الملمعة أو اللثام وهو من منسوج أبيض ! ويتعلون عادة بلعاً صفراء ذات نعال خضراء !

وفي الريف الجنوبي يلبس الأعيان (البلوزة) وفوقها القشائية وهي جبة من الصوف البني ، ويلبسون فوق الرأس الشاشية وهو طربوش أحمر بدون زر ، ويغطي بما يسمى الزنار وهو متصل بالقشائية .

أما نساؤهم فيلبسن ملاءتين زرقاوين واحدة من الأمام وواحدة من الخلف ولا تخاطان ببعضهما ببعض ، ولكن تشبكان على الكتفين بمشبكين من فضة ، ويلبس عليهما حزام أحمريربط بحلقة من نحاس ويغطين رعوسهن بعمامة ، يصفين عليها لثاماً يغطي الرأس والأكتاف ويحلين آذانهن بحلقتان كبيرة من الفضة تشبك بالعمائم لتتحمل أثقالها منعاً من إلحاق الأذى بالآذان ! أو يلبسن في أجيادهن بنقيات يعلق بها أصناف كثيرة من الحلى والأحجبة وقطع المرجان والكهرمان .

٣ - سكان الواحات :

يرى بعضهم أنهم خليط من السكان الأولين السابقين للبربر ومن السودانين ، وهم سمر البشرة ذوو أفواه بارزة وشفاه غليظة وجباه منحدره (مراجعة) وأذقان صغيرة داخلة (مراجعة) .

وينزل حول الواحات قبائل بدوية من أصل عربي ينتجعون الكلاً بقطعانهم من لابل وأغنام .

ويلبس الرجال في الواحات القريبة من الساحل غللات سمراء من الصوف ، وعباءات قصيرة ، أما في الواحات الداخلة فيلبسون قطعة من المنسوج الأسمر يلقونها حول أجسامهم كالتوجا



تونسى بملابسه الوطنية

أما نساؤهم فيلبسن جميعاً القطعتين الزرقاوين المثبتتين بالمشابك التي سبق وصفها . ويسكنون في قرى فيها بيوت مبنية بالحجر تشبهاً ببيوت سكان المدن ، وهي مكونة من غرف مفتوحة إلى أفنية داخلية ، وقراهم هذه مقسمة أحياء يفصل بعضها عن بعض بوابات ثقيلة تقفل عند ما يأتي المساء .

وسكان الواحات أهل جد وعمل ،

تراهم دائبين لا يفترون على سقى حدائقهم ، إما برفع الماء من آبار عادية أو من عيون أو آبار ارتوازية يوزع ماؤها بين جداول صناعية : كل له شرب معلوم . وهي طريقة عرفوها واتبعوها منذ فجر التاريخ ! وكثيراً ما يستبدلون بالبوابة حبلًا من مسد ، يمد عبر الشارع ليلاً ، فلا يجرؤ على اقتحامه أحد !

ومن العادات الغريبة عندهم أكل لحوم الكلاب ، لاعتقادهم أنها علاج ناجع للحمى !



فتاة من اهل واحات تونس



توفسية من سكان البقاع الداخلية

٤ - سكان الكهوف :

وأهم ظاهرة في جنوبي تونس البيوت العجيبة المنحوتة في الصخر الأصم بعضها ورثها أصحابها من أجدادهم الأولين الذين نحتوها وعاشوا فيها في عصر ما قبل التاريخ ، وبعضها نحتها أصحابها على غرار الأولى ! وتوجد كهوف يسكنها الناس في شرقي إسبانيا وفي اليابان ، وفي القوقاز وفي جنوب نهر الطونة ، وفي جهات أخرى من أفريقية ، ولكن بيوت تونس الكهفية ليس كمثلها شيء .

فعلى مقربة من بلدة شنين كهوف طبيعية في منحدرات بعض التلال ، اتخذها الأوائل بيوتاً يأوون إليها لتعصمهم من قر الجحوقارس البرد في الشتاء ، ومن حر الشمس الحارق وهب ريح السموم اللافح في الصيف ! ثم لم يلبثوا أن حسنوها بتهديب حيطانها ، وتسوية سقفها ، وسد

فوهاها الواسعة بحيطان مبنية ، تاركين فيها فتحات بمثابة أبواب لدخولهم
 وخروجهم ؛ وعلى مر السنين حذقوا نحت غرف تفتح أبوابها في الكهف
 الطبيعي ؛ ثم عمد كثير ممن لم يجدوا كهوفاً طبيعية يتخذونها بيوتاً إلى نحت
 بيوت لهم في جوار كهوف بنى عمومتهم ، وفضلوها على البيوت المبنية من
 الحجر والطين والزراب ، لتعودهم على سكنى الكهوف ، ولأنها أقل في النفقة !
 وقامت بذلك قرى في سراديب متوازية !

وأبدع نوع من هذه البيوت الكهفية هي تلك التي في هضبة مطماطا .

ويتكون كل بيت من بيوتها من غرف واسعة وردهاة وطرقات وسلاما
 ولأنها محفورة في الهضبة فلا يراها الرائي ، وقد تكون بينها ولا تشعر
 بوجودها ، وقد تنزلق قدمك إلى ما يشبه الحفرة ، فهبط على مائدة من حولها
 أفراد أسرة يأكلون !

وإن صحور هذه الهضبة لينة يسهل نحتها ، ولكنها متماسكة بعضها ببعض
 بحيث لا تنهار إذا صارت حيطاناً رقيقة تفصل بين الغرف والردهاة
 والطرقات في البيت الواحد أو بين بيتين متجاورين !

وطريقة صنع هذه البيوت هي أن تنحت مساحة مربعة ، طول
 ضلعها نحو ثلاثين قدماً لتكون بمثابة فناء البيت ، ثم تنحت الغرف
 الجانبية التي تفتح لإيها كما هو الحال في البيوت المبنية ! ويترك بعض
 قطع حجرية من غير نحت لتقوم مقام السرر والمقاعد والأخونة !

وفي بلدة مدين أحدث البيوت الكهفية ، فإنها لم تعد كهوفاً

طبيعية كما بدأت ولكنها أصبحت بيوتاً منحوتة في الصخر الأصم على نمطها : إذا رأيتموها رأيت حائطاً صخرية عالية هي منحدر وعرة لتل أو جبل ، يتخللها أبواب بعضها فوق بعض ، أو بجوار بعضها بعضاً ، مؤدية إلى بيوت كبيرة منحوتة تحوى غرفاً وأفنية وردهات ، وشاهدت سلام بارزة يرق فيها السكان إلى بيوتهم !

ولا تظن أن سكان كهوف تونس قوم بدائيون كبعض الجماعات البدائية التي تسكن الغابات الاستوائية وبعض جزائر البحار ، كما يوحى بذلك طراز بيوتهم ! ولكنهم متحضرون ويفوقون غيرهم من سكانها في بعض الصناعات التي اشتهروا بها ، وعرفت بهم !

ولا يستنكف سكان الكهوف من بيوتهم هذه ، بل إن بعضهم يفخرون بها ، ويدللون على أنها المأوى الطبيعي الذي يقي ساكنيه من حر الصيف وبرد الشتاء وعثير الرياح الهوج ! فوق أنها بمأمن عن الحريق والغرق والقنابل تعز على من رامها من اللصوص والأعداء ومن بينهم من يفرشون كهوفهم بالبسط والسجاجيد ويأثثونها بالزرابي والكراسي والسرر والتمارق والحشيات الوثيرة .

١١

على الرغم من أن فريقاً من سكان تونس ، وسكان المدن الساحلية
بخاصة ، تأثروا بالمدينة الغربية الحديثة أيما تأثر في طراز مساكنهم وأثاثها
وفرشها ، وفي ملبسهم وحياتهم الاجتماعية ، فإن كثيراً من التونسيين
لا يزالون يحافظون على كثير مما وجدوا عليه آباءهم من العادات والتقاليد
والنظم ! فلا يزالون يتبعون النظام الأبوي أي أن الأب هو رب البيت ورب أهل
البيت ، وسيدهم المطلق الذي لا يعصى له أمر ، ولا ترد له كلمة ،
يستشيره الأبناء مهما كبرت سنهم ، وعلت مراكزهم ، في شئونهم الخاصة ،
وإذا تزوج أحدهم أصبحت زوجته فرداً من أفراد الأسرة المطيعة لربها فلا
تستقل بمسكن أو برأى !

وبيوت المحافظين من مسلمي تونس ليست كلاً مباحاً كما هو
الحال في بيوت يهودها ! ولكنها قلاع حصينة للمحصنات تعز على من
رامها غير أهلها !

وإليك وصفاً شيقاً كتبه سائحة إنجليزية أذن لها بعد لأي أن تدخل
بيتاً من بيوت الطبقة العليا المحافظين قالت : وصلنا في الموعد المحدد وفتح
الباب الخارجي ، وهو باب ضخم جداً مكسو بصفائح من حديد على
أشكال جميلة تملأها زخارف بديعة ، ودلفنا منه إلى فناء مربع ، في آخره

باب آخر لا يقل ضخامة وجمالاً من الباب الأول ، طرقناه ففتحتته فتاة زنجية ترتدى ملابس فاخرة ، وقادتنا إلى بهو كبير تحوطه دواوين مرتفعة قليلاً ومفروشة بالبسط والسجاجيد وعليها الزرابي والوسائد ! وهذا البهو مخصص لجلوس رجال الأسرة ولاستقبال الضيفان . ودلفنا من هذا البهو إلى بهو آخر أفخم وأكبر ، حيطانه مغطاة بالقيشاني الملون والنقوش العربية الجميلة ، تحيط به عمدة رقيقة جميلة من الرخام الأبيض ، يحف بها عن اليمين وعن الشمال مقصورات ، وفي وسطه نافورة يخرج منها الماء من غير توقف ولا انقطاع ، ولقد رأيت غزالاً صغيراً يمشى البختري ، فما كاذ يرانا حتى نفر وأخذ يقفز قفزات رشيقة ! وانتهينا إلى غرف النوم ، وفي إحداها استقبلتنا ربة الدار ، وهي ربعة وجهها مدور أبيض ، لها وجنتان حمراوان وشعرها فاحم خفيف ! وكانت تلبس سراويل بيضاء من الحرير وسترة قصيرة فضفاضة لونها كلون الورد موشاة بالذهب والفضة ، وحذاء أصفر اللون مطرزاً بالذهب ، وقلائد مختلفة حول عنقها وحليّات ماسية مثبتة في شعرها وملابسها ! تقدمت إلينا وسلمت علينا ورحبت بمقدمنا ، وأسرع الخادومات بملابسهن الفاخرة بتقديم الكراسي فجلسنا ! وأخذت أجول بطرفي في الغرفة فأبنا وليت وجهي رأيت نقوشاً عربية بديعة ، وستائر من حرير مختلفة ألوانه ، ومرايا كبيرة في إطارات من ذهب ، وسرراً مذهبة منقوشة نقشاً بديعاً !

وقبل مغادرتي الدار جاء ربه فرجوته أن يأذن لزوجته أن تزورني في

بيتي ، وأخبرته أنه سيكون خالياً من الذكور حتى الخدم مراجعة لتقاليدكم ،
فاحمر وجهه غضباً ورفضاً رفضاً باتاً ، وبما قاله لي : إن نساء البيوتات
الكبيرة في تونس لا يسمح لهن بالخروج من بيوتهن كما يسمح المصريون
والأتراك لنسأهم بذلك !

ولقد كانت السيدة التونسية ، إلى عهد قريب ، إذا أرادت أن
تذهب إلى بيت زوجها الريفي ، دفع الخدم العربية إلى داخل البيت ، فتركها
وترخى عليها الستائر وتدفع إلى خارجه ، فتجرها الجياد إلى المنزل الريفي ،
فإذا ما وصلت حل الجواد ودفعت العربية إلى داخل المنزل فلا يراها بذلك
أحد !

ولا يستدعى الطبيب لزيارة نساء هذه الفئة إلاّ إذا اشتد عليهن
المرض ، وعند ما يدعى لزيارة إحداهن تغطي بالملاءات البيضاء فلا يظهر
منها إلا لسانها ورسغها .

أما نساء الطبقة المتوسطة فلا جناح عليهن إذا خرجن لزيارة
الأهل أو لبعض شئونهن ، ولكن لا يخرجن إلا مصحوبات بخدماتهن !
إذا رأيت إحداهن رأيت كومة من الملابس البيضاء لا يظهر منها شيء
ولا تصف منها عضواً ، تراها وقد أضفت فوق رأسها ملاءة بيضاء تخفي
وجهاً وتمسكها بيديها ممدودتين إلى الأمام فلا ترى من الطريق أكثر من
متر !

وإذا أراد فتى تونس أن يتزوج ناب عنه أهله في رؤية عروس المستقبل ، أو قامت الخاطبة بذلك بتكليف من أهله بعد أن يعدد الصفات التي يريدها فيها : ومن الصفات التي يتمناها العرسان في عرائسهم : لا يشتكى منها قصر ولا طول ، ولا نحف ولا سمن ، عيونها سوداء كعيون الغزلان ، جيدها كجيد الظبي ، لون خدودها كلون الورد ، ولسانها غير طويل .

فإذا رضى العريس وأهله ، وقبلت العروس وأهلها ، أقيمت حفلة صغيرة ، تقدم فيها الهدايا للعروس من حلى وعطور وأدوات للزينة ، وفواكه مجففة وأزهار جميلة ، كما يقدم حذاء مطرز وشمعة ذات خمس شعب لتندراً العين الحاسدة ، ومقدار من النقود ويفضل أن يكون ذهباً كأجر للماشطة التي تقوم بتزيين العروس وإلباسها يوم زفافها ! وقد يضيف العريس قصيدة عصماء من شعره إذا كان شاعراً ، يعدد فيها محاسنها وتسمى هذه قراءة الفاتحة !

ويعقد العقد بعد ذلك ، وأغلب ما يكون في أحد المساجد .
وحتى كتابة العقد لا يكون العريس قد رأى عروسه إلا إذا كانت جارة بالجنب أو ابنة عم أو خال له قد رآها صغيرة ، ولا زال يذكر محاسنها !
ويحمل الأثاث والفرش عادة من بيت العروس إلى بيت العريس على البغال ؛ ومن المناظر المألوفة الطريفة في المدن التونسية أن ترى رتلا من البغال محملة بالأثاث المذهب والفرش المطرزة تصحبها الفتيات الصغار

من أهل العروس ويبد كل منهن فرع من فروع الياسمين !
وفي اليوم السابق للزفاف يذهب العريس إلى حمام عام ، وفي المساء
يولم وليمة فاخرة لأهله وصحبه .

أما العروس فتزين وتزف إلى بيت الزوج تتقدمها فرقة موسيقية تعزف
ألحاناً مناسبة ، تتخللها زغاريد من يصحبها من قريبات وصاحبات !
وهناك تقام الأفراح أياماً وليالي ، يغنى في أثناءها المغنون والمغنيات ، وترقص
الراقصات ، وتقدم للمدعوين والمدعوات الخراف المشوية وأنواع مختلفة من
الشراب ، وصنوف كثيرة من الحلوى !

جغرافية تونس

تقع تونس من شمالي أفريقيا في منتصف المسافة تقريباً بين قناة السويس ومضيق جبل طارق، حيث تبرز أفريقيا في البحر المتوسط فتقرب من أوروبا فينقسم البحر المتوسط بذلك قسمين، تشرف تونس على قسمه الغربي بساحلها الشمالي، وعلى قسمه الشرقي بساحلها الشرقي، وتسيطر من الجنوب على الحجاز بينهما.

وإن لهذا الموقع الجغرافي البديع أهميته السياسية والحربية والاقتصادية التي ألحنا إليها في غير هذا المكان.

وتقع الجزائر في غربها والمملكة الليبية المتحدة في جنوبها الشرقي.

وتبلغ مساحة تونس ١٢٥١٨٠ كيلو متراً مربعاً.

وتمتد في شمالي تونس من الجنوب الغربي^(١) إلى الشمال الشرقي مجموعتان من الجبال، المجموعة الشمالية منهما امتداد لجبال أطلس التل، ويطلق عليها في تونس مرتفعات كروميرى، وهي تنحدر إلى البحر انحداراً

(١) هذه الجبال امتداد لجبال أطلس التل وأطلس الصحراء التي تخترق الجزائر من غربها إلى شرقها والمسافة بينهما في الجزائر أكثر اتساعاً ويحصران هضبة تسمى هضبة الشطوط.

وعراً ، ويسمى منحدرها هذا التل ، والمجموعة الجنوبية وتسمى النجد الغربي وهو امتداد لجبال أطلس الصحراء في الجزائر . وتدنو المجموعتان من بعضهما بعضاً ويقل ارتفاعهما كلما اقتربا من البحر الذي ينتهيان إليه برأسين لا يفصل بينهما إلا خليج تونس (٦٠ ميلا) ويحصر المجموعتان بينهما وادي مجردة الخصب ، ويتخللهما ممرات يسرت اتصال الجهات الواقعة جنوبهما بالجهات الواقعة شمالهما .

وينحدر النجد الغربي نحو الجنوب انحداراً شديداً نحو إقليم متسع تتخلله تلال قليلة الارتفاع يطلق عليه إقليم المنبسطات .

ويلى إقليم المنبسطات جنوباً منخفض شط الجريد المتسع الذى يمتد من حدود الجزائر تقريباً إلى مقربة من ساحل خليج قابس .
ويلى ذلك المنخفض نجد متسع قاحل يمتد شرقاً إلى المملكة الليبية المتحدة مكوناً جزءاً من تضاريسها .

ويمتد شرقى تونس بين سوسة وصفاقس سهل خصيب مشرف على البحر المتوسط يعرف هناك بالساحل .

* * *

تمتد تونس بين خط عرض 30° شمالاً من الجنوب وخط عرض 20° - 37° شمالاً من الشمال وهى لذلك فى حيز منطقة البحر المتوسط ذات الشتاء الدافئ والصيف الحار (١) ، وتهب عليها الرياح التجارية الجافة فى

(١) ولو أن طول ساحل تونس ٩٠٠ ميل ولهذا يعمل البحر على تلطيف الحرارة صيفاً وشتاءً إلا أن المناخ يميل إلى التطرف .

الصيف فلا تسقط إلا قليلا من الأمطار على الأجزاء العليا من السفوح الشمالية لجبال أطلس التل ؛ أما في الشتاء فتهب عليها الرياح الجنوبية الغربية ، وتمر بها بعض الأعاصير فيسببان سقوط الأمطار في أنحاءها المختلفة .

وتقل الأمطار في تونس من الشمال إلى الجنوب^(١) حتى لتكاد تنعدم في المناطق الجنوبية القصوى^(٢) ، وهي ليست منتظمة في الجهات المختلفة

(١) يسقط ٣٠ بوصة في الشمال، ١٨ بوصة حول تونس و ٧ بوصات بالقرب من قابس .

(٢) كتب الأستاذ محمد بouden التونسي في مقال له في إحدى المجلات التونسية تحت

عنوان تونس فقيرة ! كلا ! ولكن عطش ما نجمله فيما يلي :

قسم تونس من حيث نزول المطر قسمين : قسم ممطر وهو الشمال ، وقسم جاف وهو الوسط والجنوب والساحل ، ومساحة القسم الممطر أقل كثيراً من مساحة القسم الجاف وإن الحياة في القسم الأخير متعمرة جداً وبخاصة عند استمرار الجفاف سنوات متوالية ثم يهمل قلة السكان الآن (٣,٨٠٠,٠٠٠) وكثرتهم في عهد الرومان (٧,٠٠٠,٠٠٠) بوفرة المياه في القسم الجاف ويسأل عن سبب الجفاف ؟ ويحجب مستبعداً تناقص الأمطار بسبب تغير الطقس مستنداً إلى آراء الجغرافيين ، ويرجمه إلى عوامل بشرية وأولها تخريب الكاهنة لمزارع الزيتون والأشجار المثمرة وإتيان بني هلال على البقية الباقية ، وعبث الأيادي بأشجار الغابات ففقدت بذلك تونس المنصر الأساسي لجلب المطر وهو الغابات ، ذلك أن خضرة الأشجار تستدعي السحب وأن ظل هذه الأشجار يحمي الأرض من حرارة الشمس فتتمكث باردة ، وبرودتها توفر الأسباب لنزول المطر .

وأول نتيجة لقلة نزول المطر هي تجفاف الآبار ، إلا أن هذا التجفاف كان فادحاً أحياناً

لا نسبة بينه وبين قلة الأمطار وخصوصاً في بعض الأماكن المطرة نسبياً - ويستطرد فيرجع ذلك - معتمداً على رأى بعض الجغرافيين إلى كثرة مياه السيول التي تنطلق إلى البحر جارية التربة =

التي تنزل فيها فتقل في سنة عنها في أخرى، وعلى الرغم من قلة الأمطار في المناطق الجنوبية فإن الله سبحانه قد حباها بمياه جوفية تتفجر عيوناً تقوم حولها واحات خصيبة كثيرة البساتين !

ولا يحجزها حاجز بعد تخريب الغابات وتجرد سفوح التلال والجبال من كل نبات كان من شأنه أن يعطل السيل ويجبر الأرض على ابتلاع الماء فتروى به العيون والآبار : ثم ذكر أسباباً أخرى منها أن الفلاح في قديم الزمان كان يحرق نصف أرضه كل سنة ويبقى النصف الآخر للراحة تغمره الأعشاب التي تغذى مواشيه وتحفظ بقسط وافر من الماء فتبتلعها الأرض وتروى به طبقاتها .

أما الآن فقد أصبح الفلاح المعصرى يحرق كل أرضه وإذا بها جرداء عند نزول المطر في الحريف عاجزة عن حجز المياه بفقدانها للأعشاب » .

ومنها أنه فيما مضى كان الفلاحون يقسمون سفوح الهضبات طبقات أفقية (مدرجات) متوالية ويحيطونها بحواجز صغيرة ، فإذا ما هطلت الأمطار امتلأت تلك الحقول ماء واستحال السيلان وارتوت الأرض .

أما الآن فلا يرى الفلاح ما رآه أجداده رأياً ، فأزال الحواجز تسميلاً لأعماله الخرابية فكانت النتيجة الحتمية سيلان المياه وانصرافها إلى البحر حاملة تربة الأرض الصالحة وجفاف الأرض ونضوب المعين الذي يمد الآبار والعيون بالماء .

ويقترح في آخر مقاله تلافياً لهذه الحال الأسيفة ما يأتي :

- ١ - زرع الغابات وبخاصة في الأماكن التي لا تصلح للزراعة . (ويقصد زراعة الحبوب)
- ٢ - تحريم صنع الفحم الخشبي ولو إلى حين .
- ٣ - انزال المطر صناعياً .
- ٤ - الاحتفاظ بمياه الأمطار كما كان يحتفظ بها الأقدمون متوسمين طرقهم في ذلك !
- ٥ - استنباط الماء أينما وجد .

ولا يوجد في تونس أنهار جديرة بالذكر غير نهر مجردة الذي يبلغ طوله نحو ٢٢٨ ميلاً^(١) . وينبع في جبال الأطلس في الجزائر ويجرى نحو الشمال الشرقي بين أطلس التل وأطلس الصحراء ، ويصب في خليج تونس شمال مدينة تونس ، ويتلقى فراعاً كثيرة أشهرها نهر سليانة ونهر ملاق ! ونهر مجردة في رأى بعض الكتاب يمثل أخلاق العرب سكان واديه ، فبينما نجده يجرى رخاء كأنما أصابه خدر ، إذ به سيل جرافٌ يكتسح كل شىء في طريقه من جسور وبيوت وأنعام .

ويوجد نهر صغير يسمى نهر ميلان ، وهو اسم على غير مسمى إذ تنضب مياهه معظم أيام الصيف ، ويجرى موازياً لنهر مجردة ويصب في خليج تونس جنوب مدينة تونس .

كما توجد أنهار داخلية لا تصل إلى البحر ، ولكنها تصب في سبخات أهمها نهر الزرود الذي تنصرف إليه معظم ما يسقط من أمطار على القسم الشمالى من إقليم المنبسطات بواسطة أودية عدة أكبرها وادى حطب وادى الفكه !

* * *

وينمو في الجهات الشمالية كثيرة الأمطار غابات (مساحتها ٢¼ مليون فدان) من شجر الزان والبلوط دائم الاخضرار والأرز الحلبي ، وينمو في

(١) يبلغ متوسط تصريف نهر مجردة اليومي في الشتاء نحو ١٠٠٠ متر مكعب على حين ينخفض تصريفه في بعض أيام الصيف إلى متر مكعب واحد .

مرتفعات كروميرى نوع من البلوط يصنع منه الفلين ! ويتخلل الغابات
الأحراج والكلأ !

وينمو فى الجهات الوسطى الأرز الحلبي والبلوط .

أما فى الجهات الجنوبية فينمو شجر الزيتون وأبوفروة والعرعر ويغطيها
كلأ السهوب !

وفى المرتفعات والنجد العربى بخاصة ينمو نوع من الحشائش يسمى
« اسبارتو » يقطع ويصدر معظمه لاستعماله فى صنع نوع من الورق
الجيد !

وتونس كإقليم مصر بلد زراعى تزرع فيه الحبوب المختلفة وبخاصة فى
إقليم التل ووادى مجردة ، ومن أهم مراكز إنتاج الحبوب^(١) ماطر وباجه
وسوق الخميس وسوق الأربعاء والكاف وسليانه ، وتبلغ مساحة الأرض
المنزرعة نحو ٧¼ مليون فدان .

وتزرع مساحات كبيرة من شجر الزيتون^(٢) فى إقليم الساحل وفى
شبه جزيرة المعاوين الممتدة بين خليجى تونس والحمامات ، ويستخرج

(١) مساحة الأراضى المنزرعة حبوباً ١,٥٩٠,٠٠٠ هكتار وتبلغ المساحة المنزرعة
قمحاً وشميراً ٩٣٪ منها .

(٢) تبلغ عدد أشجار الزيتون فى تونس نحو ٢٣ مليون شجرة ، وتعد تونس الرابعة
فى ترتيب أقطار العالم ، فى زراعته ولا يفوقها فى ذلك إلا إسبانيا وإيطاليا واليونان وتبلغ أنواعه
نحو عشرين .

من ثمره زيت الزيتون الذي يصدر إلى فرنسا وبريطانيا لتكريره .
وتنمو أشجار فواكه البحر المتوسط كالبزقال (١) والكروم واللوز
والليمون والتين في شبه جزيرة المعاوين وفي الجهات الواقعة شمال جبال
أطلس التل .

وفي معظم جهات تونس وبخاصة في الجنوب تزرع الأزهار التي
يستخرج منها الروائح العطرية التي اشتهرت بها تونس وأهمها الورد والياسمين .
وينمو نخيل البلح في الواحات وفي الجهات القريبة من قابس وشط الجريد
وينتج محصولاً جيداً كل عام، والبلح التونسي من أجود أنواع البلح في العالم .
وتربي في المراعي التي تنمو في إقليم المنبسطة الأغنام والمعزى والبقر
والبغال والخيل والحمير والجمال ! وأهم منتجات تلك المراعي الصوف والشعر
وجلود الضأن والمعز ، وتقوم على بعض هذه المنتجات صناعة البسط والتمط
وأهم مركز لهذه الصناعة مدينة القيروان !

وتونس غنية بمعادنها ، فهي ثاني أقطار العالم إنتاجاً للفوسفات ،
ويستخرج من أرضها ومن جبال الأطلس بخاصة الزنك والرصاص وكذلك
الحديد والنحاس ! كما يستخرج الفحم من شبه جزيرة المعاوين .
وتشتهر تونس بصناعات عدة، أحرارها بالذكر صناعة الشاشية
(الطربوش والسجاد والخزف ونسج الحرير والصوف ونقش النحاس والفضة .
وأهم صادراتها القمح والزيت والفوسفات وبعض المعادن الأخرى والحمور .

(١) ويرتقال تونس جيد يصدر منه نحو ١٥٠٠٠ طن .

وأهم وارداتها المنسوجات والبضائع المصنوعة الأخرى والآلات الحديدية.

* * *

سكان تونس : ويبلغ عدد سكان^(١) تونس ٣,٧٩٥,٥٥٥ نسمة
التونسيون منهم يبلغون نحو ٣,٤٤٨,٠٠٠ منهم ٢,٨٣٢,٩٧٨ مسلمون
و ٧٠,٩٧١ إسرائيليون أما عدد الأجانب فيبلغ ٣٢٧,٠٠٠ .

أهم المدن :

تونس : عاصمة البلاد وأكبر مدنها وموانئها، واقعة على بحيرة تونس
الضحلة التي تخترقها قناة عميقة توصلها بمينائها الخارجي لاجوليت طولها
نحو عشرة كيلو مترات ، وإن لتونس الميزات الطبيعية التي كانت
لقرطاجنة وكانت سبباً لعظمتها : فهي واقعة على البحر^(١) عند المنفذ
الطبيعي لسهل التل الحصيب الممتد في شمالي تونس والجزائر ، وحيث
الطريق إلى وسط تونس وجنوبيها، وهي منتهى عدد من الخطوط الحديدية
الآتية من وادي مجردة الحصيب ذى المحصول الوفير ، وسوسة المتصلة بإقليم
قفصة موطن الفوسفات ، وتوزر أهم وسط لإنتاج البلح ، والخطوط البحرية
والجوية الآتية من الأقطار المختلفة .

ويبلغ عدد سكانها نحو ٤١٠,٠٠٠ نسمة منها ٢٧٢,٠٠٠ من
الوطنيين و ١٣٨,٠٠٠ من الأجانب، ومن ضواحي تونس الهامة بلدة باردو
الحميلة وتقع غربى تونس وعلى بعد أربعة كيلومترات منها في وسط مروج

(١) بحسب إحصاء سنة ١٩٥٦ .

١٠٣

خضراء وبساتين غناء ، وهي محرفة عن الكلمة الإسبانية (Prado) أى الروض أو المرج ، وكان يتخذها ملوك تونس وتباياتها مقراً لهم بينون فيها قصورهم لطيب هوائها وبرد صيفها.

صفاقس : واقعة على الساحل الشمالى لخليج قابس ، وهى عاصمة جنوبى تونس الإدارية ومن أهم مراكزها الاقتصادية ، ومن أعظم الأوساط لزراعة الزيتون، وإليها ينتهى الخط الحديدى الذى ينقل إليها الفوسفات من قفصة فتقوم بتصديره ، ومينائها صناعى ، مركز هام لصيد الأسماك .

ويبلغ عدد سكانها نحو ٦٦ ألف نسمة منهم نحو ٥٦ ألفاً من الوطنيين والباقي من الأجانب .

بنزرت : واقعة على الساحل الشمالى لتونس على خليج مسمى باسمها وهى قاعدة حربية هامة عمل الفرنسيون على تحصينها وتوسيع مينائها حتى قيل إنه يتسع لأساطيل العالم جميعها ، ويبلغ عدد سكانها نحو ٤٥ ألف نسمة منهم نحو ٣١ ألف من الوطنيين والباقي من الأجانب .

القيروان : أهم المدن الداخلية وأقدس المدن التونسية عند التونسيين وأعظم المدن الأثرية، وهى الآن وسط هام للتعدين ، وصناعة السجاجيد، وشهرتها فى صناعة السجاجيد عالمية .

ويبلغ عدد سكانها ٣٤ ألف نسمة ولا يوجد فيها من الأجانب إلا عدد قليل على خلاف المدن التونسية الأخرى !

قابس : مركز الحدائق النخيل ويبلغ عدد سكانها نحو ٢٥ ألف نسمة . مشهورة ببساتينها وبحدائقها الكثيرة التي قيل إنها تبلغ سبعة آلاف حديقة أو تزيد، ولقد برع أهلها في زراعة الحدائق والبساتين حتى قيل إن كل قابسى بستانى .

توزر^(١) : عاصمة واحات الجنوب ، مشهورة بما فيها من عيون وهي من المدن العتيقة .

(١) مدينة عتيقة ازدهرت فيها المدنية منذ عهد الرومان ! لقد وضع أحد أبنائها العالم ابن الشباط التوزرى في القرن السادس الهجرى طريقة هندسية دقيقة لتوزيع مياهها بين بساتينها ولا تزال معمولا بها حتى الآن !

مراجع الكتاب

١- مراجع عربية :

- ١ - الدكتور إبراهيم زرقانة : العائلة البشرية .
- ٢ - حسن حسين عبد الوهاب : تاريخ تونس
- ٣ - ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب
- ٤ - الواقدي : فتوح أفريقية
- ٥ - البكري : المغرب
- ٦ - ابن خالد : الاستقصى لأخبار دول المغرب الأقصى
- ٧ - السعدى : تاريخ السودان
- ٨ - ابن خلدون : المقدمة
- ٩ - محمد رفعت : التيارات السياسية في البحر المتوسط
- ١٠ - محمد أحمد حسونة : الجغرافية التاريخية للإسلام
- ١١ - مصطفى صادق الرافعي : صور إسلامية
- ١٢ - الدكتور حبيب تامر : هذه تونس
- ١٣ - دكتور حسين مؤنس : مصر ورسالتها
- ١٤ - محمد العروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب
- ١٥ - دكتور حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية بأفريقية

- ١٦ - على البهلوان : تونس الثائرة
- ١٧ - محمود عزمى : بلاد المغرب (مقال)
- ١٨ - يوسف يزبك : وحشية اليهود فى إحدى جرائمهم
المذهبية (مقال)
- ١٩ - محمد بودن : تونس فقيرة ؟ كبلا ! لكن عطشى
- ٢٠ - تفسير الطبرى
- ٢١ - رحلة العبدرى

ب - مراجع إنجليزية وفرنسية :

1. Ellsworth & Huntington : Climate and Civilisation.
2. „ „ : The Pulse of Progress.
3. „ „ : The Pulse of Asia.
4. Flinders Petriè : The Egyptians.
5. Sligman : Races of Africa.
6. Count Byronkhun de Porok : Ancient Carthage in the Light of Modern Excavation.
7. Synge : A Book of Discovery.
8. Herbert Vivian : Tunisia.
9. H.G. Wells : The Outline of History.
10. A.C. Haddon : The Races of Man.
11. „ „ : The Wanderings of Peoples.
12. J. Fairgrieve : Geography and World Power.
13. S. Ameer Ali : A Short History of the Saracens.
14. Mc Meckel : A History of the Arabs in the Sudan.
15. F. Rodd : A Second Journey among the Southern Tuareg.
16. Sir T. Arnold : The Preaching of Islam.
17. M. Shoemaker : Islam Lands.
18. J.H. Harris : Africa, Slave or Free.
19. D. Frazer : The Future of Africa.
20. J.A. Hammerton : The Wonders of the Past.
21. „ „ : Peoples of all Nations.

22. J.A. Hammerton : Countries of the World.
23. „ „ : Universal History.
24. The Royal Geographical Magazine.
25. The National Geographical Magazine.
26. Encyclopedea Britannica.
27. S.H. Beaver & Dudley Stamp. Africa.
28. E. Demolin : Comment La Route Crée le type Social.
29. E.F. Gautier : The Sahara.
30. „ „ : Les Siècles Obscurs du Maghreb.
31. E. De Martonne : Traité de Géographie Physique.

فهرس

الصفحة	الموضوع
٧	تقديم
١١	سكان تونس الأولون
١٢	(أ) البربر .
١٨	(ب) الفينيقيون .
٢٢	(ج) القرطاجينيون .
٣٤	فتح العرب لتونس .
٤٠	دولة بني الأغلب .
٤١	الفاطميون وغزوة بني هلال لتونس
٤٥	دولة الموحدين
٤٦	دولة الحفصيين
٤٦	فتح الأتراك لتونس .
٥٠	قيام البيت الحسيني .
٥٠	احتلال فرنسا لتونس .
٥٤	استقلال تونس .

الصفحة	
٥٥	الشعب التونسي
٥٧	(أ) يهود تونس
٦٩	(ب) البربر
٧١	(ج) الطوارق
٧٧	حال السكان الاجتماعية
٨٢	(أ) سكان مدينة تونس والسهول الساحلية
٨٤	» البقاع الداخلية
٨٥	» الواحات
٨٧	» الكهوف
٩٥	جغرافية تونس
١٠٥	مراجع الكتاب

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

الشعب التونسي

(أ) يهود

(ب) البربر

(ج) الطوا

حال السكان

(أ) سكا

جغرافية تون

مراجع الكت

شعوب العالم

٥

لكل شعب من شعوب العالم تاريخه وخصائصه كما له عاداته وتقاليده وجوانب طبيعية أو حضارية يتميز بها عن سواه من الشعوب . ومعرفة ذلك كله لا تضيف أعماراً إن أعمارنا فقط بل تنمي معارفنا وتوثق صلاتنا بأجزاء هذا العالم وأطرافه مما يساعدنا على أن نفهم تلك الشعوب فإذا فهمناها عرفناها لأن الفهم طريق المعرفة وإذا عرفناها أحببناها لأن المعرفة سبيل المحبة وإذا أحببناها وصلنا ما انقطع من أسباب التآخي بين عباد الله .

* صدر من هذه المجموعة :

٢ - الصين

١ - اليابان

٤ - ليبيا

٣ - إندونيسيا

Bibliotheca Alexandrina



0214494